# محمد المبارك

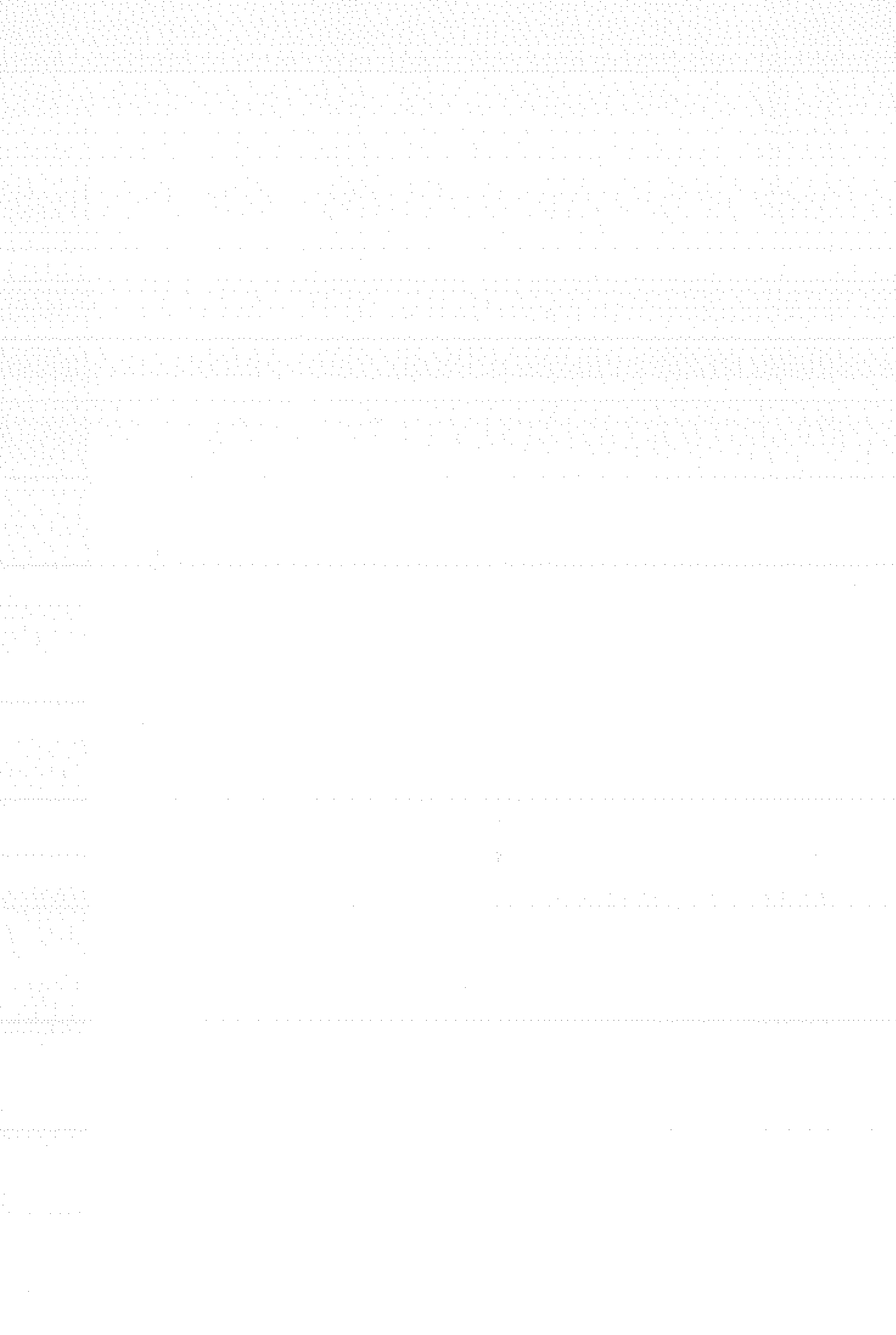


# تركيب المجتمع السوري



"رؤية إسلامية مبتكرة لحل الإشكال، العرقي، الطائفي، الحزبي في سوريا"

دار عمار للنشر والتوزيع



# تركيب المجتمع السوري

## الطبعة الأولى

## ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

**رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة**
**المطبوعات والنشر ٢٠٩٦/٩/٢٠٠٢**






عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

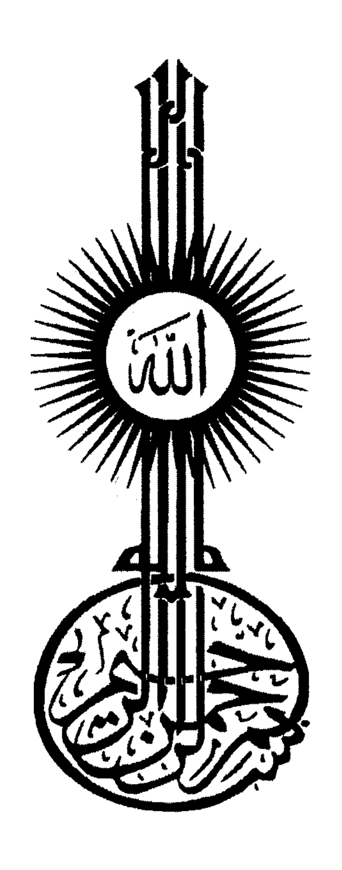
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

محمد مبارك

# تركيب المجتمع السوري

رؤية إسلامية مبكرة لحل الاشكال، العرقي، الطائفي، الحزبي في سوريا




الله
بسم الله الرحمن الرحيم

# بين يدي الكتاب

هذا الكتاب الهام المثير الذي بين أيدينا ليس مجرد حديث جريء عن فسيفساء التركيبة العرقية، الطائفية، الحزبية في سوريا الستينات وحسب، ولا هو مجرد الوثيقة الهامة التي تعكس تصور كاتبه والتيار الذي يمثله لحل هذه المشكلة وحلحلة تداعيات التوتر العرقي، الطائفي، الحزبي في تلك الفترة.

الكتاب على أهمية ما سبق، وتَميُّز الطرح الذي تبناه، شاهد مبكر على تطور فكري منهجي لكاتبه، ولتيار إسلامي في سوريا، تجاه الإشكالية الكبرى التي قامت في سوريا والوطن العربي منذ أوائل القرن العشرين - بل ربما قبل ذلك أيضاً - والمعركة التي استُجرّت لها الأمةُ على مدار القرن الماضي، ولا تزال!

إنها قضية الصراع بين القومية العربية والإسلام،

والنفور الذي قام بين التيارين لأسباب لا مجال لاستيعابها في هذا المقام، غير أن انسحاباتها وانعكاساتها وظلال معاركها الدائمة على الساحة السورية والعربية والإسلامية كانت ولا تزال شاخصة مرعبة!

كان سقوط خلافة الدولة العثمانية أحد أبرز ضحايا الصراع العربي ـ الإسلامي المبكرة، وكان تقسيم الأقاليم العربية التي انضوت تحت حكم العثمانيين نتيجة تالية لذات الصراع، وتدخلت الدول الاستعمارية في شؤون تلك الدول مستغلة التناقض المصطنع ذاته، ثم انتهكت سيادة تلك الدول واحتلت أراضيها من نفس المدخل، وقامت تُمزقُ وحدته الوطنية بتجزئة القطر الواحد منه طائفياً وعرقياً، وتغذي نزعات الانفصالية ومخاوف الحذر واليأس وسوء الظن بين أبنائه، فلما خرجت ومنحت الكيانات العربية المجزأة استقلالاتها، كانت على ثقة من أنها ستغادر مطمئنة إلى استمرار التناقض العربي ـ الإسلامي يفعل فِعلهُ المشتّت لجهود الوطنيين القادمين، وأن التناقضات التي خلقتها تكفي

لتبدد استقرار الدول الوليدة. . وقد كان!

خرج المستعمر فهبّت زعامات الدول المستقلة تبحث عن ذاتها، وقام مفكروها يستعيدون بناء كياناتهم الثقافية والفكرية والسياسية من بعد انهيار. . وفيما جنح البعض إلى فكر القومية التي بهرت العالم كله مطلع القرن الماضي، ارتدّ سواهم إلى مجدهم الإسلامي المندثر، ورفعوا رايته التي فقدت أبوّتها السياسية يريدون نفث الروح في جسدها الميت ومنهاجها المغيَّب، ونار الفرقة الاقليمية، الطائفية، العشائرية تفعل فعلها تحت الرماد!

وفي دوامة التحديات المتتالية، والمخاوف المتبادلة، والكيد الخفي من كل حدب وصوب، اشتعل الصراع بين الفرقاء واستعر، وتمادى كل طرف في تشدده وتشنجه، وزاد الأمر خطورة والهوّة اتساعاً على تقادم السنين أنْ تحول الصراع من إطار الفكر تحت مظلة حكم وطني يكاد يمنح كل صاحب اتجاه حقه في التفكير والتعبير والعمل، إلى قطبية غير متكافئة وصل أصحابُ

طرفٍ منها سدة الحكم، لا بانتخاب شرعي أو كفاءة بادية، وإنما بانقلاب عسكري سَخَّر الدولة والأمة وكل مقدرات الوطن لترجيح كفة الصراع ذاك، فيما انكفأ أصحاب الاتجاه الآخر إلى موقع المعارضة مقصوصةِ الجناحين، فالفئةِ المتَّهَمَةِ مهيضةِ الجناحين، وصولاً إلى موقع الضحية منتوفة الريش!

إنا لنعلم أنّ لدى كلٍّ من قطبي الصراع القومي - الإسلامي حججٌ وذرائع واتهامات للقطب الآخر تكاد تبلغ عنان السماء، ولكل قومية وطائفة وتيار سياسي أو فكري ذرائعُ تبرّىء النفس وتدين الآخر شاخصة مشهودة، لكن الذي غاب عن الساحة أو كاد، وما كانت الحاجة ماسة إليه ولا تزال، هو صوت الموفّقينَ الذين يبحثون عن نقاط التقاء ومساحاتِ اتفاق، وهو جهد العقلاء الذين يدركون جذور الخلاف الحقيقية، ويبصرون من زرعوا نبته الشيطاني وبذرة السوء، ويُعمِلون النظر في الفاجعة التي خلّفها هذا الصراع في الطرفين، ومن كان المستفيد الحقيقي منه ولا يزال!

لقد مَثَّلَ الاستاذ محمد المبارك الخط الإسلامي واحتل - حسب التصنيفات السائدة - أقصى اتجاه اليمين فيه، فهو أحد مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، وقطب من أقطابها وقياداتها البارزة في مراحل مبكرة، لكنه في هذه الدراسة التي بين أيدينا، وفيما اتجه إليه من قبل ومن بعد، كان أحدَ القلائل لا من جماعة الإخوان وحسب، ولا من رموز التيار الإسلامي وحده، وإنما من المفكرين العقلاء على امتداد ساحة الفكر والممارسة، ممن ارتد عن غوغائية الصراع العربي - الإسلامي المصطنع، ووسّع آفاق نظرته وزاوية رؤيته، فأبصر وسط زوبعة الخلاف نقاط الالتقاء، ورغم اضطراب الساحة دعائم الاتفاق، وجعل يتتبع الأمر متسلحاً بعلم واسع، وخبرة ناضجة، وعقل راجح، وصلت به إلى الجهر بوجوب إنهاء هذا الصراع المقيت، ووقفِ الهدر المفجع في طاقات الأمة من غير سبب وجيه.

ولقد أتت الدراسة التي بين أيدينا باكورة هذا النداء، أو طبعته الأولى إذا صح التعبير، فدراسته عن

"تركيب المجتمع السوري" قد تناولت محيط الساحة السورية وتناقضاتها القومية، الطائفية، الفكرية والحزبية، وهو أمر غاية في الأهمية من غير شك، وكان طرحه ولا يزال ضرورة من أضرّ الضروريات، لكن تأصيل الفكرة وتعميم منهجية الطرح الجديد تجسَّدَ في كتاب الأستاذ المبارك الذي أصدره في نفس المرحلة تحت عنوان: "الأمة العربية في معركة تحقيق الذات" والذي كان غاية في الصراحة على صفحاته، مثلما كان على أوراق الدراسة التي بين أيدينا، منادياً بوجوب كَفِّ الحديث عن التناقض بين العروبة والإسلام، أو الأقليات والأكثرية، والطوائف والأفكار، وبضرورة إبصار عوامل الالتقاء ووشائج الصلة بين الطرحين، معتبراً أن تحقيق ذات الأمة العربية إنما يكون بإزالة هذا التناقض المصطنع، مُنَبِّهاً إلى "أن الأزمات المستحكمة في الحضارة الحديثة، سواء في المجال الدولي أو الاقتصادي أو الأخلاقي، ليست إلا نُذُراً تنبىء عن نقص هذه الحضارة أو فسادها أو انتهاء دورتها، وأن العالم ينتظر نظاماً جديداً للحياة، ويتشوق لمثل عليا غير المثل الخادعة

التي كان يسير نحو خيالها الكاذب"، مقرراً "إني أعتقد بعد تفكير طويل أن العرب هم الأمة المرتقبة للقيام بهذا الدور العالمي، وأن الحضارة الإنسانية المثالية المرتقبة تنبثق من حضارتهم، وتستمد عناصرها من تراثهم، وأن بيدهم نتيجة ذلك مفتاح حل الأزمة العالمية، وأنهم الطليعة المنتظرة، والرائد المرتقب، وبناة المستقبل الإنساني.. " (ص ١٤ ـ ١٥ بتصرف)

ولم يتردد الأستاذ المبارك لاحقاً في الإعلان عن أن "الثقافة العربية، على اختلاف طريقة تلقينها وفهمها، هي الثقافة الجامعة بين هؤلاء جميعاً من العرب المسلمين والمسيحيين، والأقليات القومية المسلمة أو المسيحية، على تفاوت بين بيئاتهم في نسبة الأخذ منها والتأثر بقيمها والإيمان بمثلها عمقاً واتساعاً (ص ٧٥) ..

ويرى أن "النزعة الأصلية التي تستمد جذورها من الداخل، من حاضر الأمة العربية وماضيها، من اتجاهاتها الأصيلة الإنسانية وحضارتها ومُثُلها العليا وقيمها الخالدة.. هذه النزعة الأصيلة تتجلى في تيارات كثيرة، تجتمع كلها تحت أحد عنوانين، وتتصف بإحدى صفتين،

فتعلنُ بحسب العنصر الأساسي الذي تبرزه وترجحه أنها عربية أو إسلامية، وكلا الوصفين هو لون طبيعي لهذه الأمة العربية، ونبعٌ أصيل في أراضيها يمتد في تاريخ الأمة عرقاً يصل منها إلى الجذور والأعماق.. " (ص ٧٩).

و"إن الخير كل الخير للأمة العربية ولما تحميه من قيم روحية ومثل عليا في الديانات السماوية التي بقيت حية في ربوعها، بل للإنسانية جمعاء، أن يتقارب التياران ولو لم يتوحدا، وأن يلتقي طرفاهما، وأن يتكون صعيد واسع يلتقيان عليه.. " (ص ٨١) ..

و"لئن كان كل مسلم يعتبر الإسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة، فإنَّ كل عربي، مهما كان دينه، مسيحياً كان أم مسلماً ينظر إلى الإسلام على أنه تراثه القومي وتاريخه الضخم" (ص ١٣٠).

وعليه يقرر المبارك أن "إهمال ما للعرب من موقع في بناء الإسلام، وما للغتهم وأساليبهم من منزلة في فهم شريعة القرآن ومبادئه، جهلٌ بالإسلام نفسه وتاريخه ومراحله، وإضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها؛ وإن فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه، هو فصلهم عن

تاريخهم وعن حضارتهم وعن روحهم المتأصلة في نفوسهم، وتشويه لشخصيتهم، وإضعاف لقوتهم، وهبوط بهم عن مرتبة القيادة العالمية. . " (ص ١٥٨).

تلك هي روح الكاتب وذاك تَصَوُّرُه، والدراسة التي بين أيدينا "تركيب المجتمع السوري" هي انعكاس تلك الروح ونتاج ذاك التصوّر، وهي في هيكلها العام بحث توثيقي إحصائي للطوائف الدينية والأقليات العرقية، والاتجاهات الفكرية والسياسية الحزبية التي سادت في سوريا منتصف القرن الماضي؛ غير أن الكاتب لم يقف عند حدود البحث التاريخي أو التسجيل الإحصائي، بل تَعدَّاهُ بجرأته المعهودة ووطنيته المشهودة، ليقدم مشروعه في الحل، ورؤيته لواقع التعامل مع هذه الخريطة الفسيفسائية المعقدة، وما أحدثته تراكمات السنين وعبث المغرضين من تعميق لحدَّةِ التباينات، وتوسيع لهوة الخلافات، وتأجيج لنيران الكراهية والصراع فيما بين الطوائف والأعراق والاتجاهات الفكرية تلك.

والكاتب - قبل أن نسترسل في الحديث عن محتويات الكتاب - عَلَمٌ من أعلام سوريا والعروبة والإسلام أشهر من أن يعرّف، فالأستاذ محمد المبارك رحمه الله له في موقع العمل الوطني باع، وفي مسيرة العمل الإسلامي الحركي يَدٌ وسَبْقٌ، وهو في ميدان الفكر والبحث رائد فاق عصره، وفي منابر التدريس والتعليم أستاذ وفارس، تشكلت ركائز ثقافته الأولى في دمشق التي ولد فيها عام ١٩١٢م، وسارت في خطين اثنين متوازيين: أحدهما خط المدارس النظامية، وثانيهما خط حلقات العلماء المسلمين ودروسهم التقليدية؛ وأما الخط الأول فقد انتهى به إلى التخرج من كلية الحقوق ومن مدرسة الآداب العليا عام ١٩٣٥ متتلمذاً على كبار شيوخ اللغة والأدب يومئذ: سليم الجندي، وعبد القادر المبارك (والده) وعبد القادر المغربي، وشفيق جبري.

وفي الاتجاه الآخر درس المبارك على نخبة من علماء دمشق كان في صدارتهم شيخ شيوخ الشام في عصره، الشيخ محمد بدر الدين الحسني الملقب بالمحدث الأكبر، ومن هذا المنهل بنى أساسات علومه الشرعية

وثقافته الإسلامية الثرّة.

وفي العاصمة الفرنسية "باريز" وبعد أن فاز بالمرتبة الأولى في مسابقة البعثة لدراسة الآداب، أمضى الأستاذ المبارك سنواته الثلاث التاليات طالباً في كلية آداب جامعتها (السوربون) وفي معهد الدراسات الإسلامية التابع لها؛ وفي سيرة ذاتية له خَطّها بنفسه (مجيباً الدكتور محمد المجذوب الذي نشر بعضها في الجزء الأول من كتابه "علماء ومفكرون عرفتهم") تحدث المبارك عن تلك المرحلة فقال:

"تابعت دراسة الأدب العربي والثقافة الإسلامية، وعرفت المستشرقين عن كثب، ولم أجد عندهم مادة علمية أستفيدها في أكثر الموضوعات، بل كثيراً ما كنت أُصَحّحُ لهم معلوماتهم، ولكني استفدت معرفة المراجع وبعض أساليب البحث.. وخصصت السنة الثانية بكاملها لدراسة الأدب الفرنسي وفنونه وأعلامه، وحضرت على كبار أساتذة الأدب الفرنسي يومئذ، وهذه الدراسة أفادتني في تذوق الأدب والقدرة على تحليل النصوص، والاطلاع على النقد الأدبي الحديث ونظرياته والمباحث اللغوية

الحديثة. . وأما السنة الثالثة فخصصتها لدراسة علم الاجتماع دراسة كثيفة ومركزة. . وكان أساتذة القسم من كبار علماء الاجتماع الفرنسيين. . وكانت استفادتي من هذين الفرعين: الأدب الفرنسي وعلم الاجتماع كبيرة جداً، فقد مكّنتني من الولوج في صميم الثقافة الغربية والتفكير الغربي ومذاهبه الفكرية والأدبية من منابعها الأصلية وعن طريق الاختصاصيين من أهلها . . إن هذه الدراسة وسعت آفاقي وأكسبتني بعض المزايا الفكرية. . ولكنها لم تستطع أن تؤثر في معتقداتي ولا أن تغزو عقلي. . ".

ويضيف رحمه الله: "كنت خلال دراستي في باريز كثير التطلع لمعرفة مختلف آفاق المعرفة، فلم أكن مقتصراً على محاضرات الجامعة، بل كنت أحضر المنتديات والمحاضرات العامة، وأتردد على مختلف المعاهد العلمية والنوادي على تعدد اتجاهاتها وألوانها، وأتصل بالمجتمع اتصال بحثٍ وتعرف استعداداً لاستثمار هذه المعرفة في مجال الدعوة الإسلامية التي كانت تشغل نفسي في عهد مبكر. . ".

ومثلما اطلع الأستاذ المبارك خلال دراسته في فرنسا على طروحات أبرز فلاسفة عصره ومفكريه من الأوربيين وسواهم، وأقام مع العديد من هؤلاء حوارات ونقاشات وصداقات، فقد نشط كذلك على ساحة العمل الإسلامي في الغرب، واتصل هناك بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتوثقت صلته بممثلها في باريز الشيخ الفضيل الورتلاني، وبنشاطات نواديها التسعة في العاصمة الفرنسية، وجهودها في الدعوة الإسلامية.

وخلال ذلك تعرف المبارك على عمر الأميري رحمه الله، وتوثقت الصلة بينهما، فاشتركا عام ١٩٣٦ في تأسيس فرع لرابطة دعوية كانت قد قامت في سوريا بداية الثلاثينيات، عرفت باسم "**رابطة شباب محمد**"؛ والتي تطورت رؤاها الفكرية وبنيتها التنظيمية في أواسط الأربعينيات وتحولت إلى "**جمعية الإخوان المسلمين**".

وعاد المبارك إلى سوريا يحمل شهادة الليسانس في الآداب، ودبلوماً في علوم الاجتماع والأخلاق،

ويحمل من قبل ذلك ومن بعد هَمَّ الأمة الصارخ، ووجعها الذي استفحل وطال، وبينما اختار التدريس وظيفةً يطمح من خلالها إلى العمل من أجل الدعوة الإسلامية، فقد باشر نشاطه مع "شباب محمد" وبات رئيساً لجمعية "الشبان المسلمين" التي تمثلها في دمشق، ثم لما تحولت الرابطة إلى "جمعية الإخوان المسلمين" كان المبارك أحد مؤسسيها، ومفكريها، وأقطابها البارزين.

وفي أول انتخابات نيابية شهدتها سوريا بعد الاستقلال فاز المبارك بأحد ثلاثة مقاعد حصلت عليها "الجبهة الإسلامية" عام ١٩٤٧ وأعيد انتخابه عام ١٩٤٩ ضمن "الجبهة الاشتراكية الإسلامية" التي فازت بأربع مقاعد، نال الدكتور مصطفى السباعي واحداً منها؛ ثم انتخب مرة ثالثة عام ١٩٥٤، مستقلاً هذه المرة عن جماعة الإخوان التي أعلنت وقتذاك انسحابها من الميدان السياسي، وشَكَّلَ مع الإسلاميين المستقلين الذين فازوا (كان الدكتور مصطفى الزرقا واحداً من أبرزهم) "الجبهة الإسلامية" من جديد.

ولقد ساهم المبارك من خلال موقعه النيابي في إثراء الموقف الإسلامي من قضايا الأمة والوطن، كما كانت له وقفات أمام الانقلابات العسكرية مشهودة، فتصدى لتغيير قوانين الأحوال الشخصية أيام حسني الزعيم، وشارك في مقاومة ديكتاتورية أديب الشيشكلي، ودفع ثمن ذلك اضطهاداً وسجناً . . مع رفيقه في الجهاد وأخيه في العمل الإسلامي الدكتور مصطفى السباعي.

ولقد تم خلال تلك السنوات تعيين المبارك وزيراً لأربع مرات في الحكومات المتتالية، ما بين وزارتي الزراعة والأشغال العامة، سجل خلالها إنجازات مشهودة، رغم اعتبار التيار الذي مثله تيارَ أقليةٍ سياسية؛ ثم لم يلبث وأن ابتعد عن العمل السياسي والنيابي، وترك المسؤوليات والمهام التنظيمية لجماعة الإخوان المسلمين، متجهاً نحو ساحة الفكر والعطاء العلمي، فكانت سلسلة كتبه الهامة: "الأمة العربية في معركة تحقيق الذات"، "الأمة والعوامل المكونة لها"، "الفكر الإسلامي في مواجهة الأفكار الغربية"، "الدولة

ونظام الحسبة عند ابن تيمية*، ثم سلسلة نظام الإسلام بأجزائها الأربعة. . .

وهكذا، ومن عصارة تجاربه الثرية، وثقافته الواسعة، وخبراته المتنوعة، وانطلاقاً من حبه لموطنه، وغيرته على أمته، وتمنيه النجاة والسعادة لأبناء شعبه، كتب المبارك دراسته هذه التي بين أيدينا أواخر الخمسينيات، سابراً بها ـ وهو الشغفُ بعلم الاجتماع ـ تركيبة مجتمع بلده، محللاً لفسيفسائيته الأخّاذة، وتشكيلته المعقدة، بمنهجية اهتمت برصد الحقائق وتسجيل الوقائع أولاً، وتحليلها ـ من ثمّ ـ دوافع وآثار وتحسبات، وتقديم اقتراحات التعامل الحكيم معها بعد ذلك، آخذاً بعين الأعتبار حساسيتها، وتناقضاتها، وخطورتها؛ هدفه استيعاب التناقضات وامتصاص النقم، وتأليف القلوب وتوحيد الطاقات، ودَيدنُه احترامُ الخصوصيات والبحث عن نقاط الالتقاء ومساحات العمل المشترك، واعياً بخلفيات الفئات التي رصدها على مدى التاريخ، مدركاً لنزعات بعضها وشذوذ غيرها، وانحراف المنحرف فيها وتشنج المتشنج من

بينها، ومن جماع ذلك كله انتهى الأستاذ المبارك إلى اعتماد القاعدة العربية ـ الإسلامية قاعدة جذرية للميادين الفكرية والسياسية والاقتصادية والتشريعية، ورابطة مشتركة تَشُدُّ الكلَّ بأصلِ القاعدة، ومنطلق التقاء فئات المجتمع السوري المختلفة وفق مايلي:

ـ تعريب العناصر غير العربية، بربط المسلمين منهم بالثقافة الإسلامْية لا عن طريق الاستعلاء العنصري؛ وبالتوقف عند حدود اللغةمع غير المسلمين، من غير أن يتجاوزها إلى المفاهيم والمشاعر.

ـ صهر الطوائف الإسلامية جميعاً في بوتقة الإسلام العام، دون أن يكون في ذلك تَغلُّب طائفةٍ على أخرى، وإنما بنقل الجميع إلى الإسلام الذي جاء به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بريئاً من العصبيات.

ـ إيجاد صعيد مشترك بين الإسلام والمسيحية يتكون من الأسس الاعتقادية والمبادىء الروحية والخلقية المشتركة بين الدينين.

ـ الوقوف دون انتشار النزعات والتيارات الشعوبية التي تريد فصل سوريا عن البلاد العربية، أو ربط العرب بمذهب عقائدي شامل لا يرتكز على العروبة ولا على الإسلام.

ـ التقريب بين التيارين العربي والإسلامي، وإقامة الانسجام بينهما بحيث لا يُضْعِفُ أحدهما الآخر ولا يعاكسه أو يناقضه.

لقد أنجز الأستاذ المبارك دراسته عام ١٩٥٨، وليس ثمة ما يدل على تاريخ ابتداء كتابتها، أو الدافع الحقيقي لذلك، غير أن قيامه بتقديم نسخة عن هذه الدراسة للقيادة السياسية لدولة الوحدة السورية ـ المصرية أمر مؤكد، سمعته من أفواه عدد من رموز العمل الإسلامي السوري الذين عاصروا المبارك واقتربوا منه في مرحلة ما؛ كذلك أكَّدته زوج الأستاذ المبارك، السيدة سامية البيانوني، وولده الأكبر هاشم، وكلاهما نقل عنه تحفظاً أبداه في نشر الكتاب خلال حياته، وهو ما جعل الأسرة الكريمة تتردد في إجازة طباعتها، رغم

تكرمهم والسماح لي بتصوير نسخة كاملة عنها قبل عدة سنوات، وتكرموا ثانية، وبعد مشاورات واستشارات وتقليب للأمر، فأجازوا أن يخرج هذا العمل المهم إلى النور، فلهم الشكر الجزيل، والأجر الجليل من غير شك.

وتبقى في الختام مجموعة من التساؤلات تستوجب التسجيل، وخواطر من وحي الكتاب تحتاج إلى بحث أوفى:

ـ وهل الذي كتبه المبارك عن القومية العربية، وعن القاعدة العربية الإسلامية، قد أتى نتيجة الجهد الفكري المحض، أم أنه تأثر بموجة المد القومي التي سادت الساحة العربية عقديْ الخمسينيات والستينيات، وتَوَّجتُه تجربةُ الوحدة المصرية ـ السورية التي ظهرت تلك الكتابات في خضم زخمها الهادر!

ـ ثم هل كانت تلك الطروحات المثالية واقعاً قابلاً للتطبيق بحق، أم أنها كانت ولا تزال أمانٍ عَذْبة أقرب للترف الفكري منها إلى الاعتناق والتحقيق!

ـ وإذا كانت الثانية فهل الصراع بين التيارين حتمي لا يحسمه إلا منطق الغالب والمغلوب، ولو كانت الأولى فَمَنْ أفشلَ المحاولة، ومن هو المسؤول عن استمرار الصراع واحتدام الخلاف؟

ـ ثم، وبناء على كل ما سبق، هل كان الأستاذ المبارك وأضرابه سيبقون على تلك القناعات وهذه الطروحات مع تقادم الأيام والتحولات التي شهدتها سوريا وبقية البلاد العربية سياسياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، والممارسات المتطرفة التي مزقت حدود العقلانية وأحرقت مراكب الحكمة، فحققت مخاوف المبارك وجَسَّدت خشيته من أن يكون الشعور الطائفي الموروث وآثاره الباقية دافعاً للبعض نحو الانحراف والانجراف في هوة الحقد والتعصب .. وذلك حلاً لمشكلتهم الطائفية وبدافع من هذا الشعور الطائفي الكامن!

إجاباتُ هذه الأسئلة غيبٌ مبهم، وتكهنات من غير حدود، لكن طرح المبارك وقد مضى عليه قرابة

النصف قرن لا يزال جديراً بالتبني ويستحق التجريب، ذلك أن مأساة التجارب التي خالفته لا تخفى شناعة نتائجها، وانسحاباتها وانعكاساتها وظلالها القاتمة على الساحة السورية والعربية والإسلامية كانت ولا تزال شاخصة مرعبة!

باسل الرفاعي

يونيو / حزيران ٢٠٠٢م

* * *



# تركيب المجتمع السوري

بقلم الأستاذ محمد المبارك
عميد كلية الشريعة
كتب سنة ١٩٥٨

لا بد لفهم المجتمع السوري وحركاته وتطوره فهماً صحيحاً، ولا بد كذلك لتحديد الفكرة التي يمكن أن يتبناها ويقبلها، وطريقة الإصلاح التي تتجاوب معه، من معرفة العناصر التي يتكون منها، من الوجهة القومية والدينية المذهبية والفكرية والحزبية، ومعرفة الأكثرية وخصائصها، والأقليات القومية والدينية التي تلعب دورها كذلك في المجتمع السوري، فإن سورية وإن كانت في كثرتها المطلقة عربية مسلمة إلا أنها تضم بين سكانها عدداً من العناصر القومية غير العربية، ومن الأديان والفرق الدينية ما جعل منها منذ العصور القديمة مجتمعاً معقداً.

وقد يظن أن هذه التكتلات الخاصة القومية والدينية قد ذابت أو ضعف أثرها في هذا العصر الذي طغت فيه موجات سياسية وفكرية جديدة، والحقيقة خلاف ذلك، فإن هذه العوامل القديمة التي اختفت أحياناً في الظاهر قد ظهرت بمظاهر جديدة وكان لها أثر قوي في تكوين التيارات الفكرية والحزبية.

وإذا أضفنا إلى هذا كله مصالح الأفراد والطبقات الاقتصادية، وتيارات السياسة الخارجية ومصالح الدول الأجنبية على اختلافها، استطعنا أن نتصور كيف تتفاعل هذه العوامل كلها لتكوّن المجتمع السوري الحاضر بحركاته واتجاهاته الظاهرة والخفية، الأصيلة والدخيلة.

وسنعرض في دراستنا الموجزة هذه لبحث:

١ ـ العناصر القومية أو الأقليات القومية الموجودة في سورية إلى جانب الأكثرية العربية.

٢ ـ الأديان والفرق أو الإسلام والمسيحية وما يتفرع عنهما من طوائف وفرق.

٣ ـ العقائد والتيارات الفكرية والحزبية.

ونختمها ـ كما نختم كل بحث منها ـ بالخطط التوجيهية المستمدة من هذه الدراسة، هذا مع ملاحظة أننا اقتصرنا على الخطوط العريضة وأهملنا التفصيلات التي يمكن أن توضح فيما بعد، ولكننا مع ذلك راعينا في هذه الخطوط العامة الدقة والعمقَ بقدر الإمكان، كما أننا عنينا في هذه الدراسة بالأقليات والتيارات الشاذة والمنحرفة باعتبار أن الأكثرية وتيارها أو اتجاهها الأصيل معروف، عدا عن أن هذه الطريقة وسيلة لتمييز الأصيل من الغريب والشاذ، وأهملنا أخيراً عاملين يجب دراستهما لتكون هذه الدراسة كاملة وهما العامل الاقتصادي وعامل السياسة الخارجية والدول الأجنبية.

ويلاحظ كذلك أننا في دراستنا للأحزاب إنما نظرنا إلى وضعها الذي كانت عليه قبل الوحدة لا بعدها، والأحزاب العقائدية منها يبقى أثرها مستمراً إلى أمد باعتبارها تياراً فكرياً لا باعتبارها منظمات أو أجهزة، ضمن الحدود التي يكون فيها ذلك التيار الفكري قوياً أو راسخ الجذور.

* * *

## (١)

# القوميـات

### ١ـ العرب.

لا شك أن العرب يـؤلفون الأكثـرية الساحـقة من سكان سورية وإن كانوا متفـاوتين من حيث قوة الشعور بأصلهم الـعربي، وذلك لأسـبـاب وعـوامل تـاريخـيـة واجتماعية متعددة لا مجال هنا لتفصيلها.

وأكثـر العرب في سورية مـتحضـرون وقليل منهم بدو رُحَّل، وهـم عـشـائر يتنقـلون في بوادي الفـرات والجزيرة وحلب وحماه وحمص ودمشق وحوران وجبل الدروز، وهذه العشائر تتصل بقبائل العراق ونَجْد بصلة القرابة والـعصبـية، ومنهم من هم في منزلـة بين البداوة والحضـارة يرعون الغنم بدلاً من الإبل، ويمارسون شيـئاً من الزراعـة، وهـم أحط منزلة فـي نظر أهل البـادية من البدو رعاة الإبل.

وقـد استـقـر بعض هؤلاء العـرب الرحَّل وملكوا الأراضي الزراعـيـة التي يزرعـهـا بعـضـهـم ويؤجـرها

آخرون، وسكن بعضهم القرى والمدن ولا سيما شيوخهم ورؤساؤهم.

إن العنصر البدوي يمكن الاستفادة منه لإمداد بعض المناطق الضعيفة التي تكثر فيها العناصر غير العربية كالأرمن والسريان، كما هي الحال في الجزيرة التي كان للإفرنسيين خطة فيها تقوم على إكثار العناصر غير العربية من اللاجئين إلى سورية كالآشوريين والأرمن وغيرهم،ولذلك كان من الواجب رسم خطة لرفع مستوى البدو من العرب مادياً ومعنوياً، وتحضير من يمكن تحضيرهم، وتنظيم أجهزة للإدراة والتعليم والصحة تتناسب مع الحياة البدوية وتسايرها، كل هذا بعد دراسة هذه العشائر في سورية دراسة موضوعية واقعية.

## ٢ـ الأكراد.

وهم أهم العناصر غير العربية شأناً لكثرة عددهم وتجمعهم في مناطق معينة، ولا سيما مناطق الحدود التركية العراقية، ولاحتفاظهم بشعورهم القومي

واستعدادهم لانتشار الحركات المنحرفة أو المناوئة للقومية العربية في حال شعورهم بتميز العرب عليهم، أو إهمال الرابطة الإسلامية التي تربطهم بالعرب وضعفها.

١ ـ إن عدد الأكراد في سورية كبير يتجاوز (٣٥٠) ألفاً، وهم موزعون في المناطق التالية:

أ ـ الجزيرة ويشغلون منها الحدود التركية بعرض ١٠٠ كم٢ وربما يبلغ عددهم /٢٠٠/ ألف أو يزيدون.

ب ـ بعض أقضية حلب (عفرين وعين العرب) حيث يبلغون /١٠٠/ ألف.

ج ـ حي من أحياء دمشق معروف باسمهم في أقصى الشمال الشرقي من المدينة، ويقدرون بـ/ ٢٠/ ألفاً.

د ـ وهناك مناطق أخرى كقضاء الحفَّة وغيرها حيث نجد الأكراد متوزعين فيها.

ومنطقة الجزيرة أخطر هذه المناطق لوقوعها على الحدود العراقية التركية، ولوجود عناصر غريبة في الأصل كالسريان والأرمن، وكونها بؤرة لشتى الحركات

المناوئة أو المنحرفة عن اتجاه البلاد العام. ويبلغ عدد النواب الذين هم من أصل كردي عشرة أو يزيدون، موزعين على الأحزاب والكتل.

٢ ـ لا يزال الأكراد في أكثر المناطق ـ بسبب التكتل وقُرْبِ عَهدِ بعضهم بالهجرة ـ محتفظين بكيانهم وشعورهم القومي، وكثير منهم لا يعرف اللغة العربية ولا سيما في الجزيرة وأقضية حلب، ولا يزالون يستعملون اللغة الكردية حتى في المناطق التي مضى على هجرتهم إليها مئات السنين كحي الأكراد بدمشق. وبعض الأكراد انصهروا في المجتمع العام كأكراد منطقة الحفة في محافظة اللاذقية وبعض الأسر المتفرقة في البلاد السورية كآل البرازي في حماه، ولهذا الشعور بالكيان القومي مظاهر عديدة ودرجات، فقد لا يعدو عند البعض الشعور الطبيعي الفطري في حبٍّ كل إنسان لبلده الأصلية وعشيرته وقومه، وقد يبلغ أحياناً درجة العصبية التي هي مصدر لكثير من الحركات والتيارات السياسية، وخاصة حينما يشعرون بغمط حقهم أو تميز العرب عليهم بالعصبية العنصرية وقطع ما بينهم وبين

العرب من صلة الدين.

٣ ـ الأكراد كلهم مسلمون سنيون، وأثر الدين في جمهورهم قوي، ولكن تديّن العامة منهم تقليدي بعيد عن الوعي وحسن الفهم، والطرق الصوفية كثيرة الانتشار والتأثير فيهم وخاصة الطريقة النقشبندية.

٤ ـ للأكراد ماض ناصع من الناحية الوطنية إذ كانوا دوماً من العناصر التي اشتركت في الحركات الوطنية ضد الاستعمار، واشترك كثير منهم في الثورات التي قامت ضد الفرنسيين، ولم يستطع المستعمر في أي يوم من الأيام أن يفصلهم عن المجتمع العام الذي يعيشون فيه، ولا شك أن للدين أثره العميق في هذه الناحية.

٥ ـ قامت في الوسط الكردي من بعد الحرب العالمية الأولى حركتان: إحداهما: القومية الكردية وقد غذاها الفرنسيون وقوّوها مادياً ومعنوياً، وكان لها جريدة ومجلة باللغة الكرديةتكتب بالأحرف اللاتينية، وكان أداة الارتباط والعامل المؤسس في هذه الحركة

"جلادة بدرخان" من وجهاء الأكراد وكبار مثقفيهم، وقد مات منذ عدة سنوات، وكان لهذه الحركات أعضاء سريون، ولها فلسفة وأدب وشعر وخارطة جغرافية للدولة الكردية المنشودة التي تمتد من إيران فالعراق وتركيا فسورية:

أما الحركة الثانية فهي الشيوعية التي وجد فيها الأكراد الذين انفصلوا عن الإسلام الذي يربطهم بالعرب مستنداً لهم، ومما يلاحظ ويلفت النظر أن أمين السر العام للحزب الشيوعي خالد بكداش كرديٌّ بيئةً ولغة، وهو من مؤسسي الحزب الشيوعي ومن أقدم دعاته في الشرق الأوسط، وكان منهم الشاعر الكردي الملقب بجكرخون أي ذي القلب الدامي، المقيم حالياً في الجزيرة، ويقال إنه أصبح من دعاة الحزب الديمقراطي الكردي، وهو حزب قومي يساري. وزعماء الشيوعية في الجزيرة خاصة من الأكراد، وقد تغلغلت الشيوعية في الوسط الكردي حتى في الأوساط المتدينة، حيث أمكن الجمع بين الشيوعية والدين بسبب ضعف الوعي الديني، كما أمكن التوفيق بين القومية الكردية

والشيوعية منذ سنين، وذلك أن الشيوعية تدعي تحقيقها الوطن القومي للأكراد في جمهورية اشتراكية تسمى كردستان، وتكوّن جزءاً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

وانتهى الأمر بالحركتين القومية والشيوعية إلى حزبين متعاونين، أحدهما: الحزب الديمقراطي الكردي الموحد، ومركزه الأساسي في العراق، وله نشرات دورية مستمرة، وهو حزب يساري ضد الغرب، وفي الوقت نفسه يناوىء النزعة العربية اليسارية لأنها لا تعترف بحقوق الأكراد في العراق وسورية، وينادي بنضال مشترك بين العرب والأكراد ضد الاستعمار والأحلاف بشرط أن يعترف العرب بحق الأكراد بتقرير مصيرهم؛ وأكثر الطلاب الأكراد في منطقة الجزيرة من هذا الحزب، ومن دعاته جكرخون الشاعر والدكتور نافذ. والحزب يعرف عند الأكراد بالبارتي، وهي الكلمة الفرنسية التي تفيد معنى الحزب.

أما الحزب الثاني فهو الشيوعي، وله نفوذ ظاهر

في الأوساط الكردية في الجزيرة وأقضية حلب ودمشق، ويتفق مع الحزب القومي الكردي في النزعة اليسارية ضد الغرب، وفي الدعوة إلى تأمين حقوق الأكراد في دولة كردية مستقلة يعتقد الشيوعيون أنها ستكون جزءاًمن الاتحاد السوفيتي.

إن الحركة الكردية الشيوعية بأي شكل ظهرت آخذة بالازدياد بسبب انخفاض المستوى الاجتماعي في أكراد الجزيرة، وكثرة البطالة الناشئة عن استعمال الآلات وتعطيل الفلاحين الأكراد وهجرتهم إلى المدن للارتزاق والكسب، وانتشار التعليم وازدياده في الجيل الجديد يزيد هذا الشعور ويقوّيه.

ومما يزيد هذه الحركة شعور الأكراد بأن العرب يقابلونهم بعصبية قومية وتمييز عنصري كانوا لا يشعرون به سابقاً بمثل هذه القوة حين كان الشعور الديني هو السائد والمسيطر.

## ٣ـ الجركس والداغستان والشاشان.

١ ـ وهم مهاجرون من قفقاسيا من أواسط القرن

التاسع عشر إلى ما بعد الثورة الشيوعية، ويسكنون في جنوب سورية في منطقة القنيطرة في قرى خاصة بهم، وفي بعض قرى دمشق شرقاً، وبعض قرى حمص وبعض أقضية حلب، كما أن فريقاً كبيراً منهم يسكن الأردن.

٢ ـ لا يزالون محتفظين بكيانهم القومي من لغة وعادات وتكتل، ولهم جمعيات خاصة بهم، وقد انخرط فريق منهم في الجيش الفرنسي في عهد الانتداب وكانت لهم فرق خاصة، وقد اشترك بعضهم في قمع الثورة الوطنية مع الفرنسيين ولكنهم بعيدون عن القيام بأي حركة مناوئة لاتجاه البلاد العام أو قوميتها، والشيوعية فيهم قليلة جداً.

٣ ـ كلهم مسلمون سنيون.

**٤ ـ التركمان.**

وجدت هذه الأقلية التركية أو التركمانية في محافظة اللاذقية بنتيجة تقسيم الأراضي وتحديد الحدود بين سورية وتركيا، ويسكنون في قرى وأراض زراعية

في تلك المنطقة ويتكلمون التركية القديمة، وهم رغم احتفاظهم بكيانهم وعاداتهم بسبب تجمعهم في منطقة واحدة على الحدود التركية لم تظهر منهم أي حركة مناوئة للاتجاه الوطني في البلاد أو تواطؤ مع دولة أجنبية، وكلهم مسلمون سنيون. وهناك أقلية تركية مبعثرة في الأراضي السورية كالموجودين في دمشق في حي الصالحية في سفح جبل قاسيون، وفي قرية قلدون في القلمون، وفي الجزيرة.

### ٥ـ الأرمن.

إن الأقليات القومية التي تحدثنا عنها هي أقليات مسلمة، وهناك أقليات قومية غير مسلمة من أبرزها عدداً ونشاطاً الأرمن.

١ ـ والأرمن أقلية قومية كثيرة العدد نسبياً في سورية، وقد هاجروا إلى سورية على دفعات متوالية منذ نصف قرن على وجه التقريب وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى، بنتيجة تهجير الأتراك لعناصرهم المناوئة وإبعادهم عن مواطنهم الأصلية؛ وهم موزعون في

أنحاء البلاد السورية، ومتكتلون في بعض المناطق كالجزيرة، وبعض قرى اللاذقية على الحدود التركية، وفي مدينة حلب ودمشق.

٢ ـ وهم فئة نشيطة جداً ولهم في الصناعة وخاصة الميكانيك مركز مرموق ولا سيما في حلب والجزيرة، ويعمل كثير منهم في المهن الحرة كالصيدلة والطب وفي التجارة، ونشأت منهم طبقة من الأغنياء.

٣ ـ وهم محتفظون بكيانهم القومي بلغتهم وعاداتهم، ولهم جرائد باللغة الأرمنية مما يجعلهم على اتصال بالأرمن الموجودين في شتى البلاد، وانصهارهم أصعب ويحتاج إلى مدة أطول من الأقليات المسلمة بسبب اختلاف القومية والدين في آن واحد، وقد استعرب بعضهم ممن مضى عليه في البلاد السورية عدة أجيال ولكنهم لا يزالون على تمام الشعور بأصلهم الأرمني.

ولهم نواد وجمعيات ومؤسسات وكنائس خاصة بهم، ومدارس ابتدائية وثانوية تدرّس باللغة الأرمنية في

جميع المدن.

٤ ـ انخرط عدد كبير من الأرمن في الجيش الفرنسي وشاركوا في قمع الثورة الوطنية، وهم فيما عدا ذلك معروفون بالاستقامة في معاملتهم والانصراف إلى أعمالهم المسلكية، والشعور بعاطفة الوفاء والولاء للبلاد التي آوتهم.

٥ ـ يدين الأرمن بالمسيحية وهم طائفتان: أرثوذكس وهم الأكثرية وكاثوليك.

٦ ـ وهم من الوجهة السياسية منقسمون إلى ثلاث اتجاهات: فمنهم اليمينيون وهم الطاشناق المخاصمون للشيوعية، والديمقراطيون اليساريون، والشيوعيون، وفيهم عدد من قدماء الشيوعيين في سورية، إذ كان الوسط الأرمني من البيئات الأولى التي عملت فيها الشيوعية وكانت ولا تزال مرتعاً لها، وإن كان فيهم أيضاً خصوم ألدّاء للشيوعية كأكثرية أرمن الجزيرة.

٧ ـ الأرمن بوجه الإجمال يقفون موقف الحياد

من السياسة الداخلية والحكومات المتعاقبة، عدا الشيوعيين الذين يسيرون حسب توجيه حزبهم.

### ٦ ـ السريان.

١ ـ إن في سورية طائفة مسيحية شرقية يسمون سرياناً، وهم من أقدم الطوائف المسيحية الشرقية في هذه البلاد، ولهم كنيسة خاصة ورؤساء دينيون وليسوا هم المعنيين هنا في هذا الحديث، بل المقصود بالسريان أولئك الذين هاجروا من تركيا على إثر حوادث واصطدامات، وسكنوا في سورية في عهد الانتداب الفرنسي، ولهم لغة خاصة بهم وشعور قومي خاص؛ وهم وإن كانوا في الأصل من تلك الشعوب الساميّة الذين تجمعهم مع العرب رابطة أصل قديم، فإنهم يشعرون مع ذلك بتميزهم عن العرب والقومية العربية، ومما ساعد على ذلك أن لهم لغة خاصة، وأنهم يختلفون في الدين عن الأكثرية العربية المسلمة.

٢ ـ ويسكن هؤلاء السريان في الجزيرة، وهم أكبر أقلية مسيحية فيها، ويزيد عددهم على / ٣٠ / ألفاً.

ولهم حيّ في مدينة حلب يقع في جنوبها الغربي وسمي باسمهم (حي السريان).

٣ ـ وهم مسيحيون وأكثريتهم المطلقة من الأرثوذكس، والكاثوليك منهم أقلية، ولهم مدارس خاصة منها مدرسة في القامشلي ابتدائية وثانوية، تضم نحواً من /٢٠٠٠/ طالب، ولهم نواد رياضية واجتماعية راقية.

٤ ـ وكانوا هم قوام الجيش الفرنسي في الجزيرة في عهد الانتداب، ولا يزال عدد منهم يتقاضى راتباً تقاعدياً عن خدمته في ذلك العهد.

٥ ـ وفيهم عدد من كبار أغنياء الجزيرة، وهم من مالكي الآلات الزراعية، وبعضهم من مالكي الأراضي فيها، وهم على كل حال المستثمرون الحقيقيون للإنتاج الزراعي.

٦ ـ انتشرت سابقاً في أوساطهم فكرة القومية السورية، ولما لقيت هذه الفكرة المقاومة والازدراء في البلاد خَفَتَ صوتها وأصبح السريان مغلقين من الوجهة

الحزبية.

وقد حاولت بعض الأحزاب العربية جرهم إلى الفكرة العربية فلم تنجح؛ أما الشيوعية فغير منتشرة فيهم لأسباب دينية واجتماعية؛ وللسريان حنين إلى وطنهم السابق (ماردين) وكان بينهم وبين الأكراد تفاهماً على الوطن الكردي الذي يمكن أن يجدوا فيه أيضاً وطناً قومياً لهم.

٧ ـ ويمكن أن نلحق بالسريان طائفتين قليلتي العدد والأهمية وهما الكلدانيون والآشوريون، وقد هاجروا من العراق إثر الحرب العالمية الأولى، وعددهم بضعة آلاف، وكلهم فقراء، ومستواهم الاجتماعي منحط، وهم مسيحيون من الطوائف الشرقية القديمة، ولهم كنائسهم، وهم بقية من الشعب السامي القديم الذي كان يسكن ما بين النهرين.

**ملاحظات توجيهية:**

إن إزالة المشكلات الناشئة عن عدم انصهار الأقليات القومية القاطنة في سورية في المجتمع العربي

أو تخفيفها على الأقل ممكنة باتباع الخطط و الملاحظات التالية:

١ ـ العمل على تعريبها لغة وثقافة، بنشر التعليم العربي بين أبناء هذه الأقليات وتسهيل سُبُلِه في مناطقهم.

٢ ـ العمل على إزالة العصبيات القومية الخاصة والشعور بالكيان المستقل الخاص، وذلك بالحؤول دون ما يغذي العصبيات من مؤسسات ومعاهد ومنشورات وغيرها، وتوجيه هذه المؤسسات والمعاهد الوجهة التي تتفق مع اتجاه البلاد العام.

٣ ـ تجزئة مشكلة الأقليات القومية لإمكان حلها إلى جزأين، يُتَّخَذُ لكل منهما خطة خاصة: فالأقليات القومية المسلمة ترتبط مع سائر العرب المسلمين بثقافة مشتركة وعواطف وتاريخ مشترك، ولذلك فإن طريقة الصهر والدمج بالنسبة إليهم تكون عن طريق هذه العناصر الحيوية المشتركة، فهم يعتبرون التاريخَ الإسلامي تاريخهم، ورجاله الرجال الذين يجب أن

يُقدَّسوا، ومبادئه هي المبادىء التي يجبُ اتِّباعها، لذلك يجب أن يُستفادَ من وجود هذه الرابطة، وأن يعتنى بنشر الثقافة الإسلامية وتقوية روابط الأخوة التي تربطهم بإخوانهم العرب المسلمين، وتُعَرِّفُهم بمنزلة العرب في قيام الإسلام وحضارته، وبضرورة تحررهم وتحرر الأرض العربية خاصة لإمكان بقاء الإسلام وعزته؛ ويلاحظ أن عدد هذه الأقليات القومية المسلمة يبلغ نصف المليون تقريباً، وأن ابتعادها عن الإسلام سبب مباشر لضعف ارتباطها بالمجتمع العربي، ولدفعها ولجوئها إلى حركات غريبة مناوئة.

٤ ـ أما الأقليات القومية غير المسلمة فطريق تعريبها وصهرها هو الوطنية المشتركة، فتقوية أهداف الدفاع عن الوطن المشترك والشعور بحبه والمشاركة في إعزازه وتقوية الأمة التي تسكنه يمكن أن يكون أُسَّاً مشتركاً بين هذه الأقليات والمجتمع العربي، ولا سيما أن هدف هذا الوطن والأمة العربية التي تسكنه هدف إنساني يخدم البشرية جميعاً، ويعمل لخيرها وسعادتها.

٥ ـ يجب أن يكون من أهداف الحكومة الوصول بطرق حكيمة ولو على مراحل إلى إزالة تكتل القوميات، خاصة في مناطق معينة، وصهرها ودمجها في المجتمع العام.

٦ ـ ملاحظة هذه الاعتبارات السابقة وغيرها مما يجب مراعاته في انتقاء رجال الإدارة والتعليم، خاصة الذين يعيَّنون في هذه المناطق التي تتكتل فيها هذه القوميات.



## (٢)

## الأديان والمذاهب

إن في سورية عدداً من الأديان والمذاهب المتفرعة عنها، وهذه الأديان والمذاهب ذات أثر عميق في المجتمع حتى في حالة ضعف الاعتقاد بعقائدها أو إهمال شعائرها.

ذلك لأنها منذ عهد بعيد كوَّنت مجتمعات طائفية خاصة، وكونت في نفوس أصحابها حالة نفسية وشعوراً بكيان اجتماعي طائفي هو نتيجة تاريخ طويل من الصعب إزالة آثاره في وقت قصير، بصرف النظر عن اعتقاد أبنائها بها أو عدم اعتقادهم، أو ممارستهم لشعائرها أو إهمالهم لها.

ولذلك كان من المهم دراسة هذه المجتمعات الطائفية في نشأتها وتطورها وسائر تفاعلاتها مع المجتمع العام.

## التوزيع الطائفي (حسب إحصاء ١٩٥٦)

**الأديان والطوائف**

| ١ ـ المسلمون | | النسبة المئوية من مجموع السكان |
|---|---|---|
| السنيون | ٢,٨٧٠,٠٠٠ | ٧١,٣٪ |
| العلويون | ٤٢٩,٠٠٠ | ١٠,٨٪ |
| الإسماعيليون | ٤٠,٠٠٠ | ١٪ |
| الجعفريون | ١٥,٠٠٠ | ٠,٤٪ |
| الدروز | ١٢٥,٠٠٠ | ٣٪ |
| | ٣,٤٧٩,٠٠٠ | ٨٦,٥٪ |

| ٢ ـ المسيحيون | | النسبة المئوية من مجموع السكان |
|---|---|---|
| الأرثوذكس | ٣٥٠,٠٠٠ | ٨,٧٪ |
| الكاثوليك | ١٢٧,٠٠٠ | ٣٪ |
| بروتستانت وكلدان ونسطوريون | ٢٩,٠٠٠ | ٠,٨٪ |
| | ٥٠٦,٠٠٠ | ١٢,٥٪ |

| ٣ ـ اليهود | ٣٢,٠٠٠ |
|---|---|

* * *

## المسلمون السنيون

وهم الأكثرية الغالبة من السكان، إذا تبلغ نسبتهم ٧١٪ أو تزيد قليلاً، والإسلام الذي دخل سورية في عهد الخلفاء الراشدين وانتشر في عهد الأمويين قد طبع البلاد بطابع قوي ظاهر في جميع نواحي الحياة، في المدن والأرياف، وهم يمثلون الأكثرية في المدن والأرياف.

وأكثر هؤلاء السنيين من العرب والباقون من غير العرب كالأكراد والجركس والتركمان، والمذهب السني هو السائد في التعليم (أي تعليم الدين) في جميع المناطق تقريباً، وفي تشريع الأحوال الشخصية بالنسبة لسائر الفرق الإسلامية عدا الدروز.

## الفرق الإسلامية

وهي فرق انبثقت في أصلها التاريخي عن الإسلام، ولو أن بعضها ابتعد كثيراً عن الأصل، ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ فرق شيعية معتدلة لا تختلف عن جمهور

المسلمين إلا في تفاصيل العبادات والأحكام الفقهية وفي بعض الاعتقادات المتعلقة بالخلافة والإمامة، وهؤلاء هم الجعفرية الإمامية، وفريق من الإسماعيلية غير التابعين لآغا خان، وهم يسكنون في قضاء مصياف.

٢ ـ شيعة من الغلاة يؤمنون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ولكنهم يؤولون معانيه إلى حدّ يبعدهم أحياناً عن جادة الإسلام.

٣ ـ أما القسم الثالث من هذه الفرق فقد ابتعد عن الإسلام ابتعاداً شديداً، حتى كادت تنقطع الصلة بينه وبين الأصل الإسلامي، كالإسماعيلية الآغا خانية، أو انقطعت بالفعل كالدروز، وتحللوا من تكاليفه الشرعية واعتقدوا عقائد تخالف جوهر العقيدة الإسلامية.

**العلويون:**

١ ـ لما كان وضع العلويين والعقائد السائدة بينهم تطورت تطوراً كبيراً متجهة نحو مبادىء الإسلام العامة المعروفة في هذه السنين العشر الأخيرة، وكانت هذه

العقـائد الدينية تخـتلف كذلك مـا بين جمهـور عامـتهم والخاصـة من المتعلـمين، وخاصة المـثقفين ثـقافة ديـنية، لهذا فـإننا سنعرض أولاً لما عليه جـمهور العـامة منهم، دون النظر في بادىء الأمر إلى التطور الحـادث من جهة أخرى.

العلويون في الأصل فرقة من غلاة الشيعة، يعتقد عامتهم بـحلولِ الألوهية في الإمام علي بن أبي طالب، وأنه خلقَ مـحـمداً، وخلقَ مـحـمدٌ سلـمان الفـارسي، وهذه هي الأقـانيم الثـلاثة التي يرمـز إليـهـا بـ (ع. م. س.) وتسمى المعنى والاسم والبـاب؛ ويؤمنون بالقرآن ولكنهم يُؤَوِّلونهُ، ويسقطون التكاليف الشرعية من صلاة وصـوم وحج، ولهم أعيـاد بعضـهـا إسلامي وبعـضهـا مسيحي الأصل وبعضهـا فارسي، وهذه العقائد وغيرها من عـقـائدهم مكتـومـة إلا عن أبنائهم بعـد أن يأخـذوا الدين عن مـرشدهم، وهم مع ذلـك يتظاهرون بشعـائر الإسلام كالصلاة والصوم وبناء المساجد.

ليس في العلويين علمـاء، وشيوخهم من العـامة،

وإنما يتناقلون هذه المعلومات الدينية ويحفظونها وينقلونها إلى أتباعهم، ويجمعون الأموال منهم باسم الزكاة.

٢ ـ ولا صلة للعلويين عامتهم وشيوخهم بالمذهب الجعفري لا من حيث العقائد ولا من حيث العبادات والأحكام، وإن سمّوا أنفسهم أحياناً باسم الجعفريين، ولهذه التسمية عدة أسباب، منها أن بعض المتنوّرين منهم رأوا أن يتخلصوا من تلك العقائد الخرافية والباطنية ويأخذوا بمذهب شيعي معترف به، ومنها أن الفرنسيين بإشارة من بعض مستشرقيهم رأوا إلحاقهم بالمذهب الجعفري منعاً للتطور الآخذ بهم نحو الإسلام السني السائد، باعتبار أن للمذهب الجعفري أصوله وفقهه وعلماءه ومعاهده.

٣ ـ لقد حدث في العلويين تطور واضح ولا تزال حركة التطور مستمرة، فقد أخذت تختفي كثير من مظاهر التفرقة عن جمهور المسلمين بأشكال عديدة، أما المثقفون فلا يحفل أكثرهم بالأمور الدينية، وقسم منهم

يتلقى ثقافته الإسلامية في معاهد دمشق أو القاهرة، في المعاهد الدينية أو الأزهر، وقليل منهم من يذهب إلى النجف، والمتدينون من العلويين يصلّون مع سائر المسلمين في المساجد دون تفريق أو تخصيص، ولم يبق من أثر للمذهب الجعفري إلا في تسمية مفتيهم، إذ ورد وصفُهم في ملاك دائرة الفتوى بوصف الجعفري، وإلا في الانتساب إلى الجعفرية حين يُطلبُ إلى العلويين تحديد مذهبهم الفقهي في الإسلام، وأما في بقية الأمور فقد التحق العلويون بجمهرة المسلمين ومن ذلك:

٤ ـ التعليم: فإن تعليم الدين في جميع المدارس الرسمية في مناطقهم يجري وفقاً لمنهاج وزارة التربية والتعليم، ويدرس الفقه الحنفي، وعلى هذا جرى العمل منذ أكثر من عشر سنين، وكذلك الحال في أحكام الأحوال الشخصية، فقد ألغيت المحاكم العلوية الخاصة، ووحدت المحاكم الشرعية، وطبق قانون الأحوال الشخصية العام المأخوذ في جملته من الفقه السني.

٥ ـ يسكن أكثر العلويين في محافظة اللاذقية حيث يؤلفون ٦٣٪ من مجموع السكان بمقابل ٢٢,٥ من السنيين، ويتمركزون في القرى والجبال، والسنيون في المدن والسواحل، وقد كان ذلك نتيجة الانعزال والتحصن والتكتل، وتبدو الآن حركة هجرة قوية من الجبال والقرى إلى المدن الساحلية للتعلم والكسب، وبدوافع سياسية أحياناً من رؤسائهم ونوابهم.

وفي محافظتي حمص وحماة عدد كبير من العلويين، حيث يبلغون أكثر من / ٦٠/ ألفاً في كل منهما، وتليهما محافظة دمشق (نحو ستة آلاف) ثم محافظة حلب (نحو أربعة آلاف) أما في بقية المحافظات فإن عددهم لا يكاد يذكر.

٦ ـ وجمهور العلويين من الفلاحين الفقراء، ومستواهم الاجتماعي والاقتصادي في غاية من الضعف وانخفاض المستوى الاجتماعي وانتشار الجهل، وذلك بسبب إهمال الحكومات المتعاقبة لأمرهم، وقد حدث في السنوات الأخيرة إقبال شديد منهم على العلم،

وانتشر التعليم بين أبنائهم انتشاراً كبيراً، وظهرت فيهم طبقة من المثقفين والموظفين، كما أن حالتهم الاقتصادية تحسنت بعض التحسن بسبب الهجرة إلى المدن وتعاطي الأعمال الحرة المختلفة والإقبال على الوظائف.

٧ ـ يؤلف العلويون منذ قرون طويلة مجتمعاً طائفياً خاصاً منشقاً عن المجتمع الإسلامي العام بعقائده وعاداته، وقد اشتد هذا الشعور الطائفي الخاص في العهود الأخيرة وخاصة في العهد العثماني، وأضيف إلى أثر اختلاف العقائد والآراء والعادات أثر المعاملة السيئة التي عوملوا بها، مما اضطرهم إلى اتخاذ التقية وإخفاء العقائد الخاصة والشعور بالحذر والكره في آن واحد.

وقد بقي هذا الشعور الخاص متوارثاً في نفوسهم ولم يَنْجُ منه المثقفون منهم، لأن ابتعادهم عن العقائد الخاصة بالعلويين لم يَحُلْ بينهم وبين التأثر بهذه الرواسب التاريخية وتوارث هذا الألم الدفين والحقد المكبوت لما ذكرناه من الأسباب، كما توارث السنيون

من أبناء تلك المناطق من جيرانهم سوء الظن والحذر والعصبية واليأس من إصلاح الحال والتقارب، ومع كل هذا فإن ما ذكرناه من التطور يبشر في المستقبل بخير.

٨ ـ إن التطور الاجتماعي والفكري الذي حدث بتأثير الثقافة والاتصال جعل الطبقة المثقفة من العلويين تتخلى عن معتقداتهم الموروثة، وأحدث فيهم فراغاً عقائدياً إلى جانب رواسب الشعور الطائفي الموروث الباقية، فدفعهم ذلك إلى اتخاذ بعض الأحزاب المنحرفة طريقاً للانفصال عن المجتمع العام (العربي المسلم السني) الذي يمنعهم الحذر الموروث من الاندماج فيه، ولذلك انتشر فيهم في فترة من الزمن الحزب القومي السوري وانْبَثَّ دعاتُه وأُنشئت مراكزه.

٩ ـ ويبدو الآن بوضوح أن حركة الاندماج والانصهار في المجتمع العام تأخذ مجراها الطبيعي سالكة طريقين:

**أحدهما**: العودة إلى تعاليم الإسلام العامة بعقائده وثقافته وشعائره المعروفة، وقد نشطت هذه الحركة

نشاطاً طبيعياً في عدد من القرى وفي الأوساط العلوية، وكان من مظاهرها الإقبال على بناء المساجد، وانتساب فريق كبير من أبناء العلويين إلى المدارس الشرعية الثانوية والعالية، وتخرج عدد من هؤلاء من المدارس الشرعية الثانوية ومن الأزهر، وفيهم نخبة طيبة يعتمد على إخلاصها وحسن سيرتها.

وهذه الحركة الطبيعية يجب تقويتها وتغذيتها وتسريع خطاها وتوسيع مداها.

وثانيهما: الانتماء إلى الأحزاب القومية والتأثر بتيار القومية العربية، وهذا الطريق لا يحل المشكلة بتمامها ولا يكفي لإزالة الحواجز وصهر العلويين في المجتمع العام، لأنه يقتصر على الفئة المثقفة من جهة، ولأنه من جهة أخرى لا يصلح لملء الفراغ العقائدي الناشيء عن انهيار العقائد الموروثة.

عدا عن أن في هذا الطريق خطراً يجب التَّنبُّهُ إليه، فإنه يخشى أن يكون الشعور الطائفي الموروث والباقية آثاره دافعاً إلى هؤلاء المثقفين من العلويين

لاتخاذ هذه الأحزاب أو التيارات الفكرية ملجأ، والسعي للانحراف بها وإحلال عصبيتها محل العصبية القديمة الموروثة، وتشويه فكرتها وصياغة الفكرة القومية صياغة يُتعمَّدُ فيها إقصاءُ الحضارة الإسلامية والمبادىء التي آمن بها العرب واتصلت بتاريخهم اتصالاً وثيقاً، وذلك حلاً لمشكلتهم الطائفية الخاصة، وبدافع من هذا الشعور الطائفي الكامن.

لذلك كان من الضروري السير في طريق مزدوج للوصول إلى صهر ما يقارب نصف المليون من المسلمين الذين كانوا منشقين عن الجمهور في المجتمع العام، وذلك بترك التيار السياسي العربي العام يحدث تأثيره في الوسط العلوي من جهة، وبتقوية تيار آخر فكري عقائدي وديني في آن واحد من جهة أخرى، ويكون ذلك بنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، وخلق جو من الطمأنينة الكاملة والألفة لتحل محل الشعور السابق، شعور الحذر وسوء الظن والكره، ويحتاج ذلك إلى منهاج مفصل قوامه الأمور التالية:

أ ـ نشر التعليم الإسلامي وإيفاد بعثات إلى المدارس الشرعية الثانوية والعالية.

ب ـ تنشيط حركة بناء المساجد.

جـ ـ بث الوعاظ والمرشدين مع حسن اختيارهم.

د ـ العناية بانتقاء المعلمين والأساتذة.

هـ ـ تحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

ويجب أن يستعان لتنفيذ هذه الخطة الإصلاحية بأبناء العلويين أنفسهم، ممن يُعتمَدُ على وطنيتهم ودينهم ووعيهم الصحيح.

**الإسماعيليون:**

الإسماعيليون في سورية فئتان مختلفتان اختلافاً كبيراً، أما إحداهما فهي فئة من الشيعة المعتدلة كالإمامية، وقد افترقوا عنهم في الإمام السابع، وهم لا يخرجون عن تعاليم الإسلام وعقائده المعروفة، ويقيمون شعائره من صلاة وصوم وغيرهما، وهم لا يعترفون بإمامة آغاخان وحفيده من بعده، وتسكن هذه الفئة من

الإسماعيليين غرب حماه في قضاء مصياف وفي بعض أقضية حمص (ناحية الشعرة من قضاء تلكلخ) وفي محافظة اللاذقية (ناحية الخوابي من قضاء طرطوس) و(ناحية القدموس من قضاء بانياس) وليس لهذه الفئة مشكلة خاصة، والإسراع في إزالة الحاجز الرقيق الذي يفصلهم عن المجتمع العام ضروري.

أما الفئة الثانية من الإسماعيلية فهم من غلاة الشيعة والباطنية، لأنهم وإن كانوا في الأصل فرقة إسلامية، إلا أنهم تحللوا من جميع تعاليمه وشرائعه وشعائره عن طريق التأويل، فلا يقيمون الصلاة ولا يبنون المساجد ولا يصومون، ويعتقدون بإمامة آغا خان ثم حفيده، وهم على اتصال دائم مادي ومعنوي بالإسماعيليين المقيمين في الهند والباكستان، وعصبيتهم الطائفية شديدة، وشعورهم بالتميز عن جمهور المسلمين السنيين قوي حاد.

وقد ظهرت في هذه الفئة من الإسماعيليين حركة للعودة إلى جادة الإسلام وتعاليمه المعروفة بدأت في

عهد الانتداب الفرنسي عن طريق بعض علماء حمص المخلصين ، وأصبح عدد كبير منهم وأسر كثيرة مسلمين سنيين، إلا أن الفرنسيين أخرجوا هؤلاء العلماء من بلدة السلمية ومنعوهم من دخولها، وبقي هؤلاء الذين عادوا إلى الإسلام السني، وقد انقسمت بعض الأسر إلى قسمين: إسماعيلي وسني، وحصلت بين الفريقين مشاجرات عنيفة.

وهذه الفئة من الإسماعيلية الآغا خانية تسكن في شرق حماه في قضاء السلمية، في مركز القضاء وقراه.

وعدد الإسماعيليين من الفئتين (٤٠) ألفاً، وليس في الإحصاءات الرسمية تفريق بينهما.

**الجعفرية:**

وهي الفرق الشيعية المعروفة والمنتشرة في بلاد الإسلام وخاصة في إيران والقارة الهندية والعراق ولبنان، وهي فرقة معتدلة لا تختلف عن جمهرة المسلمين السنيين إلا في تفاصيل الأحكام والعبادات، وفي موضوع الإمامة والخلافة، ولهم مذهب مدون

معروف له معاهده العلمية وشيوخه وأئمته. وهم في سورية قليلو العدد يبلغون حسب الإحصاء الرسمي (١٥) ألفاً، وإن كان من الصعب إحصاؤهم بدقة لأنهم مسجلون مسلمين دون ذكر المذهب؛ وهم يسكنون في بعض قرى مناطق حلب وحمص، وفي مدينة دمشق حيث يقيم مجتهدهم أو رئيسهم الديني، وهو حالياً السيد حسين مكي الذي خلف العلامة المجتهد السيد عبد المحسن الأمين.

وليس للشيعة الجعفرية من المسلمين مشكلة اجتماعية لاندماجهم مع جمهور المسلمين.

**الدروز:**

١ - وهم بين الفرق المنشقة عن أصل إسلامي ويُعتبرون الأقلية المذهبية التي تأتي في الدرجة الثانية بعد العلويين، إذ يبلغ عددهم /١٢٥/ ألفاً، ومشكلتهم أدق وأكثر تعقيداً بسبب تكتلهم في بعض مناطق معينة تقع على حدود لبنان والأردن وإسرائيل، وحدّةِ شعورهم الطائفي وتميزهم تميزاً تاماً في معتقداتهم وتقاليدهم عن

المجتمع العام المسلم السني، وهم يسكنون في الجبل المعروف باسمهم (جبل الدروز) في جنوب سورية، حيث يزيد عددهم على /١٠٠/ ألف، وفي سفوح جبل الشيخ أو حرمون المتصل بلبنان، وفي دمشق وبعض قراها وبعض قرى حلب. والأكثرية الغالبة من الدروز فقراء وخاصة سكان الجبل، ولذلك تكثر هجرتهم في داخل الأراضي السورية والعربية، وخارجها إلى أمريكا.

٢ ـ إن الدروز فرقة انشقت في الأصل عن جمهرة المسلمين في عهد الفاطميين، في زمن الحاكم بأمر الله الذي يعتقدون أنه مظهر للذات الإلهية، ويعتقدون أنهم وحدهم المؤمنون الموحدون ـ كما يسمون أنفسهم ـ فلا سبيل للدخول في ملّتهم أو التبشير بها، ولا يؤمنون بالحياة الآخرة إذ الجزاء يكون بارتقاء الروح إلى مرتبة أعلى أو انحطاطها إلى درجة أسفل، وظهورها في مظهر حيوان أو إنسان دون ما كانت عليه في دورها السابق، فالحياة دورات متتالية؛ وهم لا يعتقدون مطلقاً بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا

بآل البيت، وقد يذكرون اسم الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة ويكنون بها عن أشخاص آخرين معروفين عندهم، ولا يعترفون بأي شعيرة من شعائر الإسلام كالصلاة أو الصوم أو الحج أو الزكاة، ولا يتخذون المساجد، ولهم معابد خاصة تسمى مجالس، ورجال الدين عندهم ليسوا على شيء من العلم، وهم أقرب إلى الأمية، ويتوارثون معلومات وكتباً سرية ينقلونها من جيل إلى جيل، وقد لا يعرف هذه المعلومات الدينية كثير من الدروز أنفسهم ممن لم يسمح لهم أن يتلقوا الدين.

٣ ـ وشعور جمهرة الدروز بأنهم غير مسلمين شعور واضح ويصرحون به في أكثر الأحوال إذا لم يكن هنالك موجب للتقية، فهم لا يَدَّعون الانتساب إلى الإسلام كما هي الحال لدى جمهور العلويين، ولا عبرة بأقوال مثقفيهم الذين خرجوا على العقيدة الدرزية وتخلوا عنها وتأثروا بالثقافة العامة في المجموع؛ ومع ذلك فإن هؤلاء المثقفين أو كثرتهم المطلقة ورثت هذا الشعور بالتميز الطائفي ولو تخلوا عن معتقداتهم

الطائفية، وكثيراً ما يجدون طرقاً فكرية أو سياسية للتعبير عن هذا الشعور، كما كان لهذا الشعور في جمهور عامتهم مظاهر واضحة في التاريخ.

فقد كان الدروز مصدر قلق دائم للدولة العثمانية، فقد قاموا بثورات عديدة في وجه العثمانيين كان الدافع الأول إليها نظرتهم إلى الحكام السنيين، ونظرة هؤلاء الحكام إليهم، وفقدان الخطة السليمة الحكيمة في إدارتهم ودمجهم في المجتمع.

وثار الدروز كذلك على الفرنسيين لأسباب تتعلق بتقاليدهم وأوضاعهم الخاصة التي انتهكها الفرنسيون ولم يرعوا حرمتها، واستفاد الوطنيون يومئذ من نقمتهم على الفرنسيين واتفقوا معهم على إشعال الثورة.

٤ ـ في فترة سابقة انتسب فريق من الشباب الدرزي إلى الحزب القومي السوري الذي كان دوماً وسيلة خبيثة تخفي وراءها العصبيات الطائفية وتهدف للقضاء التام على العروبة والإسلام معاً.

٥ ـ إن انتشار الثقافة والتعليم في الوسط الدرزي

أدى إلى انتشار الفكرة العربية في الجيل الجديد، وانتسب فريق منهم إلى الأحزاب القومية، إلا أن المشكلة النفسية لم تحل، وذلك لأن الفكرة العربية والانتماء إلى الأحزاب القومية لا يمكن أن يملأ الفراغ الحادث بزوال العقائد الموروثة ملأً تاماً، ويحاول بعض هؤلاء المثقفين أن يجردوا من التاريخ العربي مبادىء الإسلام والحضارة المنبثقة عنه، بدافع الرغبة في التسوية بينهم في بُعدهم عن الإسلام وعن الآخرين من العرب المسلمين السنيين الذين لا يشعرون مطلقاً بهذا الفصل، وقد يكون لوجودهم في مثل هذه الأحزاب أو الهيئات القومية أثر في مثل هذا الاتجاه الفكري الذي لا يتفق ولا يتجاوب مع تفكير الكثرة الغالبة من الشعب العربي في سورية وفي الأقطار الأخرى.

أما محاولات فريق قليل من رجال الفكر كالمرحوم الأمير شكيب أرسلان، والأستاذ عارف نكدي لإعادة الدروز إلى الحظيرة الإسلامية العامة وإزالة الفوارق الاعتقادية والحواجز التاريخية فلم يقدر لها النجاح المطلوب.

٦ ـ أما تعليم الدين في المدارس الرسمية في المناطق الدرزية فإنه يجري على أساس تعليم المبادىء الأخلاقية العامة في نصوص من القرآن والحديث.

وأما الأحوال الشخصية فقد طبق القانون عليهم فيما لا يخالف مذهبهم، واستثنى القانون تسع مسائل كبرى روعيت فيها أحكام مذهبهم التي لا تتفق مع الفقه الإسلامي، كمنع تعدد الزوجات، وكون الطلاق في المحكمة، وجواز الوصية مطلقاً، كما نص قانون السلطة القضائية على وجود محكمتين مذهبيتين للدروز: بدائية واستئنافية، كل هذا خلافاً للعلويين الذين اندمجوا في المجموع من كل هذه النواحي.

## ملاحظات توجيهية:

١ ـ إن من الضروري العناية بدراسة المجتمع والمناطق الدرزية ورسم خطة حكيمة لصهرها في المجتمع العام بعيدة عن الطرق التعسفية التي لجأت إليها الحكومات منذ عهد العثمانيين، وبعيدة كذلك عن تجسيد الأوضاع الطائفية وإعطائها الصبغة الشرعية.

٢ ـ يجب أن تتناول هذه الدراسة العقائد والتقاليد، ومدى إمكان تبدلها وتطورها، والحالة الاقتصادية وحركة الهجرة الداخلية والخارجية، ومدى صلة الدروز في المناطق السورية مع المقيمين في لبنان والأردن، سواء من الوجهة الاقتصادية أو الاجتماعية والدينية، وتوزعِ الدروز في المناطق والأراضي السورية، وأحوال مختلف طبقاتهم، واتجاه تطورها الفكري والسياسي.

**اليزيدية:**

وهم أقلية ضئيلة يبلغ عددها ثلاثة آلاف في محافظتي الحسكة وحلب، وهم يقدسون الشيطان، ويقال إنهم في الأصل فرقة إسلامية، وليس لهم شأن يذكر.

**المسيحيون:**

لما فتح المسلمون الأولون من العرب بلاد الشام لم يُكْرِهُوا الناسَ على تغيير دينهم فبقي فيها عدد كبير من المسيحيين على دينهم، سواء العرب الذين كانوا

مستقرين قبل الإسلام في البلاد أو غيرهم من الساميين من سكان البلاد ومن أقام من الروم البيزنطيين. ويؤلف المسيحيون في سورية مجموعة تبلغ نسبتها الثمن من مجموع السكان، ونسبتهم في لبنان أكثر، وفي العراق أقل، وهم موزعون في المدن والأرياف على السواء، ولهم في مجلس النواب الحالي نحواً من خمسة عشر نائباً.

وللمسيحيين في سورية طوائف كثيرة يمكننا أن نرجعها إل ثلاث:

١ ـ الأرثوذكس والطوائف الشرقية عامة.

٢ ـ الكاثوليك.

٣ ـ البروتستانت.

**الأرثوذكس**: (الروم الأرثوذكس ـ السريان الأرثوذكس ـ الأرمن الأرثوذكس)

١ ـ وهم الطائفة الأكثر عدداً من بين الطوائف المسيحية، إذا يؤلفون ٧٠٪ من مجموع المسيحيين و ٨٪ من مجموع السكان، كما أنهم من أقدم هذه الطوائف

منشأ وتاريخاً، وهي طائفة شرقية الصبغة في أصلها وفي شعائرها الدينية وعاداتها، وهي غير مرتبطة بمركز ديني خارج البلاد، فالكنيسة الأرثوذكسية لها في كل بلد بطريرك مستقل، وهي الطائفة المنتشرة في شرقي أوروبا في اليونان وروسيا ويوغسلافيا وغيرها.

والروم الأرثوذكس هم المسيحيون الذين كانوا تابعين للبيزنطيين الذين تبنوا هذه الكنيسة ودعموها منفصلة عن الكنيسة الغربية التي أصبح مركزها روما منذ أواخر القرن التاسع، وهم الأكثر عدداً بين الأرثوذكس؛ والسريان الأرثوذكس هم المسيحيون السوريون القدماء الذين رأوا أن ينفصلوا عن كنيسة بيزانس ويستقلوا عنها، وقد عرفوا في التاريخ باليعاقبة وكانت علاقتهم مع العرب المسلمين الفاتحين لبيزنطية طيبة، وكان لهم في قصر الخلفاء حظوة، وكان يقيم بطريرك السريان الأرثوذكس في ماردين ثم في الموصل، وأصبح مقره الآن في حمص، ويتبعه سائر السريان الأرثوذكس في سورية والعراق وغيرها، ولغتهم الدينية السريانية، وكنيستهم من حيث المعتقدات الدينية

كالكنيسة القبطية.

أما الأرمن الأرثوذكس فهم لا يختلفون عن سائر الأرثوذكس، ولكن الكنيسة الأرثوذكسية إذ كانت مستقلة في كل قومية أو بلد فقد انتقلت كذلك الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية إلى سورية بانتقال الأرمن إليها، وبقي لها رئيسها المستقل وأصبح مركزه في بيروت منذ الهجرة الأرمنية، ثم حدث خلاف لا يزال مستمراً بين رئيسين يدعي كل منهما أنه بطريرك الأرمن، أحدهما في دمشق والآخر في بيروت.

ويمكن أن نلحق بالكنيسة الأرثوذكسية سائر الطوائف الشرقية كالنسطوريين المعروفين أيضاً بالآشوريين، لغلبة الصبغة الشرقية عليهم وانفصالهم عن الكنيسة الغربية.

٢ ـ إن الكنيسة الأرثوذكسية بسبب صبغتها الشرقية وقدم تاريخها أكثر تغلغلاً وانتشاراً في البلاد السورية وخاصة في الأرياف، وأكثر مشاركة في الحركات الوطنية وأكثر تأثراً وتجاوباً مع الحركة العربية

منذ عهد العثمانيين، وقد برز عدد من رجالهم في الميادين الوطنية والسياسية وإن لم يشاركوا في الثورات مشاركة عملية.

٣ ـ للطائفة الأرثوذكسية مجالس طائفية ومؤسسات عديدة من مدارس ومياتم[1] وجمعيات خيرية.

٤ ـ الشيوعية فاشية منتشرة في أبناء الطائفة الأرثوذكسية، وذلك لما كان بين روسيا التي كانت أكبر دولة أرثوذكسية المذهب والمسيحيين الأرثوذكس في سورية من صلات قديمة انتقلت من حيز المشاركة في المذهب الديني إلى المحبة والولاء السياسي، وقد كانت روسيا القيصرية تبنت حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية، كما ادعت فرنسا مثل ذلك بالنسبة للكاثوليك، وقد استعادت روسيا الاشتراكية الصلة القديمة في هذه السنوات الأخيرة وأحيتها، ودعت رجال الكنيسة الأرثوذكسية خاصة لزيارتها أكثر من مرة.

---

(١) دور رعاية الأبنام.

ولو أحصيت نسبة الأحزاب والعقائد الحزبية في الطائفة الأرثوذكسية لوجد أن الشيوعية تأتي في المرتبة الأولى، وقد ظهر عدد من هؤلاء الشيوعيين الأرثوذكس في المجالس الطائفية وإدارة المدارس ومجالس الجمعيات والنوادي الأدبية، سواء الخاصة بالطائفة أو العامة.

٥ ـ انتسب عدد من أبناء هذه الطائفة كذلك إلى الحزب القومي السوري، ومما يلاحظ أن مؤسس هذا الحزب وأكثر قادته كذلك من الطائفة الأرثوذكسية.

٦ ـ ظهر عدد من أبناء هذه الطائفة كذلك في ميدان الفكرة القومية أو كانوا دعاة فكرتها أو من مؤسسيها، وذلك إما بدافع التأثر الحقيقي بالفكرة العربية أو للظهور في بيئات لا مجال فيها للشيوعية أو القومية السورية أن تكون مقبولة.

وعلى كل حال فإن مما يلفت النظر ويجب أن يكون موضع دراسة جديدة أنه كان لبعض المسيحيين أثر واضح في ميدان الفكرة العربية وفي صياغة فلسفتها، ومما لا شك فيه أن هؤلاء المفكرين تأثروا في هذه

الصياغة بنشأتهم الأصلية وشعورهم الباطني العميق بالطائفية والمشكلة الطائفية، فحاولوا تجريد القومية العربية من الإسلام والفكر الإسلامي، وجنحوا في صياغتها إلى الفلسفات القومية الغربية وخاصة الفلسفة الألمانية والإيطالية، فعل ذلك بعضهم بدافع طبيعي لا تشوبه نية سيئة وقصد، وفعله آخرون متعمداً إسقاط الإسلام من حساب القومية العربية، والطعن فيه وسلخه من تاريخ الأمة العربية، سواءاً أكان ذلك بطريق صريح أو خفي غير مباشر.

**الكاثوليك**: (الروم الكاثوليك ـ السريان الكاثوليك ـ المارونيون ـ الأرمن)

طائفة غربية في شعائرها الدينية أنشأها الرومان في عهد قسطنطين، ورئيسها الديني الأعلى هو البابا، وهي تنقسم في سورية إلى عدة كنائس أو طوائف تختلف في منشئها التاريخي واللغة التي تقيم بها شعائرها، وتتفق في تبعيتها للبابا وفي عقائدها.

**الروم الكاثوليك**: وقد انفصلوا عن الروم

الأرثوذكس من ثلاثة قرون وهم أكثر الطوائف الكاثوليكية عدداً، ويقيم بطريركهم في دمشق ويتنقل ما بينها وبين الاسكندرية.

**والسريان الكاثوليك**: هم في الأصل من السريان الأرثوذكس، وقد تقربوا إلى روما منذ الحرب الصليبية وانضموا أخيراً في القرن الثامن عشر إلى المذهب الكاثوليكي، ويستعملون السريانية والعربية في صلواتهم.

**والموارنة**: ويرجع تاريخهم إلى القرن الخامس الميلادي، وينسبون إلى "مار مارون" وقد ظهرت كنيستهم مستقلة منذ القرن السابع للميلاد، والتجأ أكثرهم إلى لبنان على إثر الفتح الإسلامي، وتقربوا أثناء الحروب الصليبية من كنيسة روما وانضموا إليها، ولكن لغتهم الدينية بقيت الآرامية، ويقيم بطريركهم في "بكركي" في لبنان.

**اللاتين**: أنشأ الصليبيون كنيسة في سورية واعتنق بعض السوريين مذهبهم، وبقيت بذلك الكنيسة اللاتينية

بعد ذهاب الصليبيين، والرئيس الأعلى يقيم في بيروت.

**الأرمن**: أكثر الأرمن الذين يسكنون في سورية يتبعون المذهب الأرثوذكسي، والأقلية منهم كاثوليكية المذهب، فالأرمن الكاثوليك كسائر الكنائس الكاثوليكية يتبعون المقر البابوي.

وقد سعى الفرنسيون في أيام الانتداب لكثلكة من استطاعوا من أبناء الكنيسة الشرقية، وتم فعلاً دخول عدد من أبناء الطوائف الشرقية في المذهب الكاثوليكي ولا سيما في حوران، وأكثرية الكاثوليك في سورية يقيمون في المدن، وقليل منهم في الأرياف.

ولهم مؤسسات ومدارس وجمعيات ومياتم ومستشفيات كثيرة ومتنوعة بحسب كنائسهم المختلفة، كما أنهم يستفيدون ويتعاونون مع المؤسسات الأجنبية الكاثوليكية كمدرسة الآباء العازاريين الفرنسية الأصل، وراهبات الفرنسيسكين والقلبين الأقدسين والإخوة المريميون وجُلّها في حلب ودمشق، وهي على الغالب

إفرنسية أو إيطالية، ولها مراكز أساسية في لبنان من أديرة ومؤسسات علمية واجتماعية.

وللكاثوليك عطف خاص على الأمم اللاتينية، وهم على الغالب يكرهون الشيوعية ويقاومونها.

**البروتستانتية**: وهي أحدث الطوائف المسيحية وأقلها عدداً، وقد ظهرت بنتيجة التبشير الذي قامت به بعض البعثات الأجنبية من دانيمركية وأيرلندية وإنكليزية وأميريكية منذ قرن تقريباً، وغالب أبناء هذه الطائفة هم في الأصل من الأرثوذكس الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتي بتأثير التبشير والتعليم.

ويميل أبناء هذه الطائفة في الأصل إلى الأمم التي تدين بالبروتستانتية كالإنكليز والأمريكان.

**ملاحظة:**

يجب أن تدرس المؤسسات الأجنبية ذات الصبغة الدينية أو العلمانية العلمية أو الصحية أو غيرها في سوريا دراسة أخصائية لمعرفة أهدافها ووسائلها، والدول التي تنتمي إليها، وتاريخها ومدى تأثيرها، لوضع خطة

لمراقبتها أو منعها حسب الحاجة.

## ملاحظات توجيهية:

١ ـ قد يكون الدين في الأوساط المسيحية قد ضعف أثره من جهة المعتقدات والشعائر، كما أن نفوذ الرؤساء الدينيين قد ضعف كذلك، ولكن الشعور الطائفي لا يزال موجوداً ومحتفظاً بأثره في النفوس، ودافعاً إلى كثير من التصرفات والفعاليات من اتجاهات فكرية أو سياسية أو غيرها.

ولئن كانت البلاد العربية تفخر بأنه أمكنَ أن تعيش فيها الأديانُ المختلفة خلافاً للبلاد الأوروبية، فإن القرون الأخيرة من العهد العثماني قد تركت بعض الآثار السيئة من الحذر والانكماش لدى أبناء الطوائف المسيحية، مما بقيت رواسبه حتى هذا العصر في النفوس تعمل عملها الخفي.

٢ ـ إن جمهرة المسيحيين تهتم بمصالحهم الحيوية والاقتصادية وأن يكون بينها وبين الأكثرية المسلمة انسجام يسمح لها بممارسة هذه المصالح وتأمينها دون أن

تهتم بشتى الفلسفات أو التحزبات السياسية، وهذا الحد من الانسجام كان موجوداً دوماً في التاريخ إلا في فترات استثنائية لا يحسب لها حساب.

٣ ـ ولكن الجيل المثقف من المسيحيين وقد نشأ في جو من التيارات الفكرية والحزبية المصطرعة اشترك في هذا الميدان وساهم فيه، وإن بقي منه قسم كبير مع ذلك في معزل عنها.

لقد وجد بعضهم في القومية السورية وآخرون في الشيوعية ملجأ أو متنفساً للشعور الطائفي الباطني المكبوت، يزيل به ما بينه وبين الأكثرية من مفارقات مميزة.

ووجد آخرون من العقلاء والمخلصين أن طريق الفكرة العربية أصح وأسلم وأنجح، فأخذوا بهذه الفكرة ودعوا إليها، ولكنهم إذ يرون لدى التأمل والتفكير أن الفكرة العربية وتاريخ الأمة العربية وحضارتها وخصائصها من الصعب بل من المتعذر أن تنفصل عن الإسلام وتاريخه وحضارته، وأن الوحدة العربية عملياً

تؤدي إلى اجتماع أكثرية غالبة مطلقة للمسلمين وأقلية ضئيلة جداً عددياً من المسيحيين، فإنهم وجدوا أنفسهم بين أمرين: فإما أن يقبلوا الواقع كما هو ويعيشوا معه فيتقبلوا الفكرة العربية نظرياً والوحدة العربية عملياً بكل ما فيها وبجميع ما تؤدي إليه من النتائج، وإما أن يحاولوا بذل جهود علمية فكرية وسياسية حزبية لوضع أسس للقومية العربية تجعلها منفصلة عن الإسلام وقابلة لأن تنفصل عنه، أو تجعلها على الأقل بمعزل عن تأثيره في العصر الحاضر إن لم يكن ذلك بالنسبة إلى العصور الماضية، ولو أدى ذلك إلى مخالفة الحقائق وتشويه حقيقة القومية العربية وتاريخها، وقطع الصلة ما بين العرب والشعوب الذين يدينون لهم بالولاء وينظرون إليهم نظرة حب وتعظم؛ ولا شك أن المخلصين من نصارى العرب يسلكون الطريق الأول، أي قبول الفكرة العربية والوحدة بنتائجها الطبيعية وبمنطقها الكامل.

كما أن الطريق الثاني سلكه فريق من دعاة الفكرة العربية ومن مؤسسي الأحزاب القومية والمنتسبين إليها من المسيحيين العرب.

٤ ـ وفي رأينا أن الجمع بين الحرية الدينية والمساواة بين المواطنين من جهة، وقيام الفكرة العربية بحقيقتها الكاملة ومنطقها ونتائجها من غير اصطناع سلخ الإسلام عنها وفصله عن حاضرها ليس بمتعذر أو مستحيل، إذا كانت الصراحة والإخلاص رائدنا وذلك بالطريقة التالية:

٥ ـ يجب إبعاد كل تأثير أجنبي أولاً مهما كان نوعه أو لونه عن الأوساط المسيحية العربية أو القاطنة في سورية، بمنعِ ما لا يتفقُ مع الأهداف العامة للبلاد من مؤسسات ومعاهد، ولا سيما المدارس والبعثات التبشيرية الأجنبية، ومراقبة المؤسسات الأخرى مراقبة دقيقة، وإلزامها بما يجب من القيود التي تجعلها خادمة لمصالح المجتمع العربي لا مستغلة له.

٦ ـ تحديد صعيد مشترك يلتقي عليه الإسلام والمسيحية من المبادىء الروحية والخلقية، والإشادة بهذا الاشتراك وتشجيع البحث فيه ونشره على الجمهور المسلم والمسيحي، بحيث يشعر الفريقان بما بينهما من

اشتراك في قضايا الحياة الجوهرية وفي حمل التراث الروحي الضخم الذي تركته الديانات في العالم الذي تعتبر الأمة العربية هي الحافظة له، وإهمال نواحي الاختلاف بين الدينين وتضييق نطاق بحثها، وحصرها في أبناء كل طائفة على حدة لئلا تكون مثار خلاف أو نزاع.

٧ ـ تشجيع التديّن في اتجاه يخالف العصبية الطائفية التي يجب مكافحتها عن طريق الأديان نفسها، وفي ذلك وقاية لأبناء الأديان والطوائف من التيارات الإلحادية.

٨ ـ تقوية الروح العربية عن طريق التعليم ونشر الثقافة وتعريب ما يمكن تعريبه من الأقليات المسيحية غير العربية، وخاصة ما كان يرجع منها إلى أصول سامية أو شرقية قديمة، ليست هي في الحقيقة هي التاريخية إلا موجات عربية قديمة، وتقوية الروح الوطنية في جميع الأوساط المسيحية العربية وغير العربية (كالأرمن).

* * *

(٣)

## العقائد الفكرية والتيارات الحزبية

إن الأجناس أو القوميات والأديان والفرق التي يتألف منها المجتمع السوري تكوّن عاملاً أساسياً مؤثراً في تكوين التيارات الحزبية والعقائد الفكرية، ذلك أن العصبيات القومية والطائفية الخاصة وما يرافقها غالباً من شعور بالحذر أو الانكماش أو الكره، حين لا تستطيع أن تظهر بمظهرها الحقيقي تتخذ من المذاهب الفكرية والسياسية ومن الأحزاب وسيلة للتعبير عن نفسها وعن شعورها المكبوت، وطريقاً لإخراج نفسها من أزمة الشعور بالنقص الناشيء عن كونها أقلية وللتغلب على الأكثرية الكبرى.

ومن دراسة تركيب المجتمع السوري التي قدمناها نستطيع أن نستنتج النتائج التالية:

إن الأكثرية الغالبة من الشعب السوري عربية من حيث قوميتها، مسلمة سنيّة من حيث دينها ومذهبها واعتقادها، وأن (الفكرة العربية الإسلامية) ـ العربية في

قاعدتها وشعورها القومي، والإسلامية في مفاهيمها وعقائدها وعواطفها ـ هي الفكرة التي تدين بها الأكثرية الساحقة من الشعب السوري، وأن هنالك حداً مشتركاً من العروبة والإسلام بين جميع طبقات هذه الأكثرية وأفرادها، مهما كان الاختلاف في فهم هذه الفكرة أو قوة الشعور بها، سواء أكان القالب الظاهر عربياً أم إسلامياً.

هذه هي القاعدة الأساسية التاريخية والنفسية والعامل الاجتماعي والنفسي العميق الذي يصدر عنه الشعب في أكثريته في تفكيره ومشاعره وتصرفاته، وعلى أساس هذا الصعيد المشترك المستقر في الأعماق والجذور يلتقي الشعب العربي في سورية مع بقية الشعب العربي في الأقطار العربية الأخرى: في العراق، والجزيرة، ومصر، والمغرب، كما تلتقي هذه الشعوب العربية في عقائدها ومفاهيمها وعواطفها والكثير من عاداتها مع سائر الشعوب الإسلامية.

إن جميع التيارات والنزعات التي ترجع إلى هذا

المصدر المزدوج العربي الإسلامي: العربي القاعدة والإسلامي الثقافة والفكرة، تعتبر نزعات أصيلة على تفاوت درجاتها في الفهم، ضِيقاً وسَعةً وجموداً وتجدداً، وفي المستوى والتعبير ما بين التعبير الساذج العامي والفلسفي العلمي، وعلى اختلاف أخذها ومزجها بين العربية والإسلام، وبين من يأخذ العربية على أنها عنصرية أو حضارة وثقافة ولغة، ومن يأخذ الإسلام على أنه مبدأ عقائدي شامل أو دين تعبدي أو ثقافة، أو تاريخ وحضارة غابرة ومصدر استيحاء، وعلى تفاوت هذه النزعات في اعتبار العربية أو الإسلامية هي الإطار الأعم والتسمية الراجحة.

٢ ـ إن جميع التيارات والنزعات التي تستهدف محاربة العروبة والإسلام أو أحدهما أو تعرض عنهما هي تيارات شاذة في نظر الشعب العربي في سورية، لا تنسجم معه، ولا تجد فيه جذوراً لها إلا في بيئات ومجالات ضيقة محدودة، وتكون غريبة عنه في طبيعتها ومصدرها ودوافعها، ويمكن أن نصف هذه التيارات والنزعات بالشعوبية والانحراف.

٣ ـ إن الأحزاب والبيئات الوطنية التي تكونت في البلاد السورية والعربية عامة منذ نصف قرن تنهل من ينبوع هذه الفكرة العربية الإسلامية، وقد كانت تلقى التأييد الشعبي مبدئياً بقدر ما كانت تحقق في فكرتها وبرنامجها أولاً وفي عملها ثانياً من هذه الفكرة، كما كانت الأحزاب عموماً تقابل بالإعراض بقدر ما كانت تبتعد عن العروبة أو الإسلام، أو تتنكر لهما، أو تنتقص من حقائقهما، أو تنحرف عنهما.

هذا وربما كنا غير مغالين إذا قلنا: إنه لم يستطع حزب ولا هيئة في سورية أن يحقق في مناهجه أو فكرته وفلسفته هذه الفكرة العربية الإسلامية بكامل عناصرها تحقيقاً تاماً يتجاوب مع رغبة أكثرية الشعب وأعماق شعوره وتفكيره، هذا بصرفِ النظرِ عما حَقَّقهُ كلُّ حزب في عمله ونضاله.

وإن المرحلة الأخيرة من تطور الهيئات والتيارات الحزبية في سورية حتى ما قبل الوحدة لا تزال آثارها باقية بعد الوحدة، على اعتبارها ليست منظمات حزبية

فحسب، بل تيارات فكرية وعقائدية، ويمكن تلخيصها بما يأتي مع ملاحظة أننا لا نتعرض في هذا البحث إلا للاتجاه الفكري، دون الحكم على مواقف الأحزاب السياسية وتصرفاتها:

**١ـ الأحزاب والبيئات الوطنية ذات النزعة الأصيلة:**

١ ) ويدخل في هذا القسم عدد من الأحزاب، منها أحزاب لا تبرز فيها الناحية العقائدية، ومناهجها ليست مبنية على فلسفة فكرية بل على أسس عامة؛ ونجد هنا أمامنا الحزب الوطني، وحزب الشعب، وعناصرهما الأساسية تتألف من بقايا الكتلة الوطنية التي تجمعت فيها قوى النضال الوطني في عهد الحكم الفرنسي، وكلاهما تألفا على طريقة جمع الأشخاص لا على أساس الانتماء إلى مبادىء وعقائد فلسفية، وإن كان كل منهما مبنياً على أساس الفكرة العربية في شكلها العادي البسيط، والجامع لهؤلاء الأشخاص في كل من الحزبين إما نضالٌ مشترك سابق في عهد الانتداب الفرنسي، أو المعارضة في الحكم الوطني، أو

مجرد الرغبة في الانتساب لحزب حاكم أو مرشح للحكم، وصلة الحزبين بالطبقات الشعبية العامة أكثر من صلتهما بالطبقة المثقفة، لأن النضال السابق واستلام الحكم في العهد الوطني جعلهما بتماس مع هذه الطبقات الشعبية.

٢ ) أما الهيئات العقائدية التي تنهل من النزعة الأصيلة في الشعب، على تفاوت في الزاوية التي ينظر منها وفي الجانب الذي تؤخذ منه الفكرة وفي طريقة الفهم، فابرزها هيئتان: حزب البعث العربي، ويمثل الجانب العربي أو القومي من الفكرة، والإخوان المسلمون، ويمثلون الجانب الإسلامي منها.

وكل واحدة من هاتين الهيئتين أخذت جانباً من الفكرة العربية الإسلامية وأهملت الجانب الآخر، ولذلك لقيت كل واحدة منهما حظاً من النجاح والانتشار، وكانت لها قاعدة شعبية بسبب المبدأ والفكرة بصرف النظر عن التطبيق والتصرف العملي والمواقف السياسية لكل منهما، ولكن حظ كل منهما من ناحية

الفكرة نفسها لم يكن كاملاً، وذلك بسبب إهمال الإخوان المسلمين للجانب العربي من الفكرة؛ ولا يكفي مطلقاً التعبير عن هذا الجانب في البيانات السياسية بمناسبة بعض القضايا العامة، بل لابد من مراعاة ذلك في التلقين والتوجيه الحزبي حتى يلمس الرأي العام أثر ذلك في الأتباع وفي القاعدة الشعبية للهيئة؛ وكذلك إهمال حزب البعث العربي للجانب الإسلامي من الفكرة إهمالاً تاماً، مع ظهور بوادر تدل على محاولة فصل الإسلام فصلاً تاماً عن العروبة، أو على الانتقاص من الإسلام والتنكر له من بعض أفراد الحزب، ولم يستطع حزب البعث بنضالة التحرري في الميدان السياسي أن يُعَوِّضَ عن هذا النقيصة البارزة في فكرته وفلسفته، أو على الأقل في تفكير بعض أفراده، وذلك مما جعل الرأي العام الشعبي يشعر بالحذر تجاه الحزب لهذا السبب بالذات.

وعلى كل فإن هاتين الهيئتين ليستا هما اللتان أوجدتا الفكرة العربية والفكرة الإسلامية، بل الأمر على العكس، فإنهما ليستا إلا مظهرين غير ناضجين ولا

كاملين لفكرتين أو لتيارين عميقين وكبيرين يسيران في داخل الشعب في سورية هما (تيار الفكرة العربية) و (تيار الفكرة الإسلامية) انبعثا وتكوّنا خلال قرن كامل بتأثر عوامل سياسية وفكرية وتاريخية، وهما أكبر وأضخم وأوسع من أن ينحصرا في هيئة أو حزب، أو أن تكون حياتهما واستمرارهما منوطاً بحياة هيئة تتعرض للضعف والانحلال ليحل محلها ما هو أكمل وأنضج وأقوى.

٣ ) وإن التطور الاجتماعي والعقائدي والسياسي في سورية والبلاد العربية يجعل هذين التيارين (العربي) و (الإسلامي) يتفاعلان ويسيران نحو التقارب، وإن العمل التاريخي العظيم في هذا العصر الذي يستطيع به القضاء على الشعوبيات بأنواعها وعلى التكتلات الحزبية الخاصة بطريقة جذرية، والاتصال العميق مع الشعب العربي في جميع الأقطار والتجاوب معه، إنما هو الإسراع في تقريب هذين التيارين وجعلهما في مرحلة تعاون متبادل، ليكونا مظهرين مختلفين لحقيقة عميقة واحدة يلتقيان عندها في المستقبل القريب أو البعيد.

## ٢ ـ التيارات والعقائد الشعوبية:

يقـابل الفكرة العربيـة والإسـلاميـة التي هي مبـدأ الأكثرية الغالبـة من الشعب أفكار أخرى تمثل الانحراف عن المحور العربي الإسلامي، وتكوَّنت بمؤثرات خارجة عن المجتـمع العربي، فكرية أو سيـاسية، أعانتـها دوافع داخلية من بعض البيئـات الخاصة، وهي تؤدي بقصد أو بغير قصد إلى القضاء على العروبة والإسلام.

لقد سلكت الشعـوبية طريقين متبـاينين كُلَّ التباين للقضاء على عروبة سورية وبالتالي على الإسلام أيضاً: إحداهمـا: فصل سورية عن الأمة العربية وعزلهـا عنها عـزلاً تامـاً، وذلك بـابتـداع الفكرة القـومـيـة السـورية المصطنعة، وادعاء وجود أمـة سورية، أما الطريق الآخر فـإذابة سورية وغـيرها مما يمكـن أيضاً إذابتـه من البلدان العربيـة في بوتقة غريبـة عنها وأوسع منهـا، وهي بوتقة الشعـوب السوفيـتية، بنشـر الفكرة الشيوعـية التي يمكن بتـيارها القـوي الفكري والسـياسي أن تُضـعفَ ثم تُزيلَ خـصائص الأمـة العـربيـة وكـيانهـا وحـضارتهـا؛ وقـد

استغلت هذه الدعوات شعور الأقليات القومية أو الطائفية الموروث تجاه الأكثرية، والمنطوي على الحذر والخوف، وأحياناً على الكُره والنقمة، ووجدت فيها بيئة خصبة لإغرائها في أن تجعل من هذه الدعوات الشعوبية متنفساً عن شعورها المكبوت، وعصبياتها الخاصة، وطريقاً للتعويض عن الشعور بالنقص، والتغلب على الأكثرية عن طريق العقائد السياسية والتيارات الحزبية التي يخفي مظهرها العلني العام وأهدافها السياسية هذه الحقيقة النفسية العميقة، وذلك بدلاً من سلوك الطريق الطبيعي في تصحيح الأوضاع، ذلك الطريق الذي يرسمه التطور الطبيعي، ويسير فيه المجتمع السوري في الواقع، والمبني على سير الأكثرية في طريق المساواة والتسامح، وإحداث الطمأنينة في نفوس أبناء المجتمعات الخاصة من الأقليات المختلفة، وتبني هذه الأقليات لروح الأكثرية وأهدافها العامة، وهذا هو الطريق الذي يرتضيه العقلاء والمخلصون من أبناء هذه الأقليات، الذين رأوا أن الخيرَ كلَّ الخيرِ في ربط مصيرهم بمصير هذه الأمة العربية ذات التاريخ

الناصع والحاضر الشريف والمستقبل العظيم والروح الإنسانية.

١ ) القومية السورية:

نشأت حوالي سنة ١٩٣٢ أسسها لبناني مسيحي أرثوذكسي اسمه أنطون سعادة، وهي قومية مصطنعة يقصد بها أن تحل محل القومية العربية وأن تفصل سورية أرضاً وقوماً وتاريخاً عن الأمة العربية.

ولا شك أن ثمة دوافع خارجية أيدت هذه الفكرة، والمعروف أن عدداً من الدول الأجنبية تعاونت على إمداد هذه الحركة بحسب الظروف السياسية.

وتفشت هذه الفكرة في بعض الأوساط المسيحية والعلوية وبعض الأقليات الأخرى بشكل خاص، ولم تستطع التغلغل في الأوساط الشعبية خاصة بين المسلمين السنيين، ولم تجد فيها استجابة.

بل كانت دعايتها سيئة إجمالاً في الأوساط الشعبية، وغالبية المتزعمين لهذه الحركة من المسيحيين وخصوصاً اللبنانيين.

٢ ) الشيوعية:

وترجع بذور دعوتها في سورية إلى ما قبل ثلاثين عاماً، وقد تلمست أتباعها ودعايتها في الأوساط غير العربية، من المسلمين الذين تنكروا للإسلام كبعض (الأكراد) أو من غير المسلمين (كالأرمن) وفي الأوساط غير الإسلامية بوجه عام وخاصة (المسيحيين الأرثوذكس) أما المسلمون فهم أقل استعداداً لتقبل الشيوعية، لفقدان الدافع النفسي الخاص، ومن أخذ بالشيوعية منهم فإنما جاءته بتأثير فكري عن طريق الثقافة.

وهكذا تجد الشيوعية في بيئات المجتمعات الخاصة وفي العناصر غير العربية أو غير الإسلامية مستنداً نفسياً ترتكز عليه لنشر دعوتها الشعوبية.

وتتخذ الشيوعية عدا ذلك لدعايتها مستندين عامين:

١ ) الفقر المرافق للجهل وضعف الوعي، ولكن الشيوعية لم تنجح كثيراً في استغلال هذه الناحية

لسببين: أحدهما أن مستوى المعيشة في سورية أحسن منه في كثير من البلدان الأخرى، وثانيهما وجود مناعة قوية ناشئة عن قوة العقائد الدينية، ولذلك بقيت الجمهرة الكبرى من العمال والفلاحين فضلاً عن غيرهم من الطبقات بمنجاة من الشيوعية.

٢ ) الاستعمار والوضع السياسي: استغلت الشيوعية شعارها ومبدأها في محاربة الاستعمار لنشر دعاياتها، ولكنها إلى عهد قريب لم تنجح في هذا الاستغلال لأن محاربة الاستعمار كان يجد في الشعب تعابير وطنية عربية أو إسلامية ودوافع من نفس النوع أيضاً، وإنْ حاول الشيوعيون أيضاً استغلال هذه الشعارات والتعابير في غير توفيق، ولأن مواقف الاتحاد السوفييتي لم تكن في السابق متفقة مع أماني العرب وقضاياهم، كموقفه في الموافقة على قيام دولة إسرائيل، مما كان يضطر الشيوعيين إلى الدفاع غير الموفق عنها وإلى المواربة في موضوع وجود الدولة الإسرائيلية.

ولكن المرحلة التي كانت الشيوعية موفقة فيها إلى

حد بعيد في استغلال الموقف السياسي الدولي هي المرحلة التي أيد فيها الاتحاد السوفييتي القضايا العربية وتحرر البلاد العربية من الاستعمار، وتعاون مع الحكومات المنتهجة لسياسة التحرّر والحياد، ومع ذلك فإن في الشعب وعياً عاماً يفرق بين الشيوعية مذهباً والعلاقة الحسنة مع الدول الشيوعية ما دامت سياستها منسجمة مع سياسة البلاد العربية وقضاياها الحقة، وإن تقوية هذا الوعي وتغذيته مما يضعف الدعاية الشيوعية ولا يسيء إلى هذه العلاقات الحسنة مع الدول الاشتراكية.

وفي هذه المرحلة الأخيرة التي سبقت الوحدة بين سورية ومصر قامت الشيوعية بنشاط قوي بعضه ظاهر وبعضه خفي، مستفيدة من هذا الظرف الذي سمح لها بالظهور والإعلان والمجاهرة الفعلية وإن لم يرخص قانونياً للحزب الشيوعي، ونشطت لا في الدعاية إلى أقصى حدودها فحسب بل في التغلغل في مرافق التأثير ومواطن النفوذ بالطرق التالية:

١ ـ التغلغل في الوظائف العامة مع اتخاذ التقيّة

وعدم الإعلان.

٢ ـ التغلغل في جميع النقابات بقدر الإمكان.

٣ ـ التغلغل في الأوساط والمراكز التي تغذي الرأي العام وتفسح المجال لنشر الأفكار والدعاية، كالعمل في الصحف على اختلاف نزعاتها، وفي دوائر الإذاعة، والنوادي الأدبية والفنية، والجمعيات الثقافية، كرابطة الكتاب العرب وغيرها، وفي التعليم الابتدائي والثانوي، والعمل على تأليف وترجمة الكتب ذات الصبغة الشيوعية، سواء منها الأدبية أو السياسية أو غيرها مما غصت به دور الكتب ويباع بأثمان بخسة.

٤ ـ التسرب إلى بعض المرافق الحيوية كالهاتف، والمخابرات، والتموين، وبعض وظائف البلديات.

٥ ـ تكوين جمعيات ليس لها ظاهراً صفة سياسية كأنصار السلم، والمساهمة في النشاط العام، والظهور والمشاركة في جميع الاحتفالات والمظاهرات الوطنية، وتنظيمها للتوجيه ولإظهار بعض الشخصيات المتبنية للدعوة الشيوعية أو الصديقة المناصرة.

٦ ـ دخول أكبر عدد ممكن في قاعدة الأحزاب القومية وخاصة ذات الاتجاه الاشتراكي، والعمل للدخول في الصفوف الأولى وفي القيادة إنْ أمكن؛ وبالجملة فإن الشيوعية تعمل جادةً على استمالةِ الرأي العام بجميع طبقاته وتغذيته باستمرار، وعلى توجيهه وتوجيه الهيئات والأحزاب ذات الصبغة الوطنية والشعبية، وعلى تهيئة الأشخاص وإعدادهم وتقديمهم للجمهور، وعلى الاستيلاء على المراكز والمرافق، وعلى أخذ المعلومات الدقيقة الهامة.

وتستغل شعور الأقليات القومية والدينية لإحلال الرابطة الشيوعية محل الرابطة القومية، والفلسفة الماركسية المادية محل الإسلام والعقائد الدينية الأخرى، وكسر الإطار العربي لإذابة الأمة العربية في بوتقة الدول الشيوعية، والارتباط بحاضر الشيوعية العالمية ومصيرها ومستقبلها بدلاً من الارتباط بتاريخ الأمة العربية المستمر في فعاليته وعمله، وبالشعوب الإسلامية المرتبطة بالعرب بروابط الثقافة والحضارة والتاريخ.

وإن الوقوف دون تيار الشيوعية واستمرار نفوذه وسريانه في كيان الأمة العربية بطريقة سلمية عملية يكون بسلوك الطرق التالية:

١ ـ نشر الفكرة العربية الإسلامية المتصلة بجمهرة الشعب في سورية وفي جميع الأقطار العربية، وتقويتها بشتى وسائل النشر والدعاية الرسمية والشعبية، وفقاً لخطة مرسومة مفصلة محددة الخطوط والمعالم، وخاصة من ناحية تعاون التيارين العربي القومي والإسلامي واقتسامهما المجالات وعدم تعارضهما.

٢ ـ الاستمرار في خطة التفريق بين المذهب الشيوعي داخلياً والعلاقة الخارجية مع الدول الشيوعية بحيث يمتنع الالتباس بينهما، والاقتصار في هذه العلاقة الخارجية على ميادين السياسة الدولية والتعاون الاقتصادي والعسكري والحذر الشديد في الميادين الثقافية والتربوية.

وجعل هذا التفريق قائماً في الوعي الشعبي وماثلاً في الرأي العام، وعدم الاقتصار في ذلك على طبقة

الحاكمين والقادة.

٣ ـ تأمين العدالة الاجتماعية بتطبيق النظم الاشتراكية التي تفصّل على قدر حاجاتنا وأوضاعنا المعنوية والمادية، وبطريقة متلائمة مع عقائدنا وخصائصنا، وخاصة ما يتعلق بتأمين مرافق الحياة الضرورية لجميع الطبقات وفي مقدمتها العمال والفلاحون، دون أن يأخذ هذا الإصلاح مظاهر طبقية.

٤ ـ الحيلولة بطرق حكيمة دون تسرب الشيوعيين المركّز وتغلغلهم المرسوم الخطة إلى المراكز الحساسة والوظائف التوجيهية والمرافق الحيوية، في الجيش والوظائف المدنية ذات الخطورة.

* * *

## القواعد والخطط التوجيهية

من دراسة المجتمع السوري في أصوله وعناصر تركيبه القومية والدينية ونزعاته وتياراته نستطيع أن نستنتج القواعد والأهداف التالية:

**١ - إن القاعدة الشعبية التي يمكن أن يعتمد عليها ويُبنى على أساسها هي العربية والإسلامية**، وهي القاعدة الجذرية المتصلة ببقية أجزائها في الأقطار العربية الأخرى، والتي تكوّن معها وحدة اجتماعية حية متجانسة ومتجاوبة، وعلى أساس هذه القاعدة يجب أن ترسم الخطط في سائر الميادين الفكرية والسياسية والاقتصادية والتشريعية، ليمكن تعميمها في الأقطار الأخرى وتوسيعها حتى تشملها وتكون مقبولة فيها جميعاً.

من الضروري تقريب كل ما يبتعد عن هذه القاعدة نحوها، وتحويل ما يختلف عنها إليها، حتى تدور جميع العناصر المختلفة في فلكها، ولا يجوز العكس مطلقاً بأن تُجاملَ العناصرُ البعيدة عن محور

القاعدة أو التي في أطرافه على حساب القاعدة.

إن في المجتمع السوري ثلاث فئات هي من هذا المجتمع نشأت فيه منذ عصور قريبة أو بعيدة في التاريخ وارتبطت به، تقع من هذه القاعدة العربية الإسلامية في طرف قريب أو بعيد، ولكن من اليسير الوقوع على نقاط الالتقاء وتوسيع الروابط المشتركة وشَدّها بأصل القاعدة، وهذه الفئات هي: المواطنون غير العرب، الطوائف الإسلامية المنشقة، المسيحيون، وهذه هي الحلول والاتجاهات المقترحة:

**٢ ـ تعريب العناصر غير العربية:**

وهي عملية ليست عسيرة بالنسبة إلى المسلمين من غير العرب، لما في نفوسهم نحو الثقافة العربية من حب وارتباط في التفكير والشعور، ولا يبقى بينهم وبين التعريب ـ أي التثقُّف بالثقافة العربية ـ إلا الانفصال اللغوي، وهو أمر يسير إذا سلكت إليه طريق الحكمة، وذلك يكون عن طريق التوجيه الإسلامي والثقافة الإسلامية لا عن طريق الاستعلاء العنصري الذي

يجدون في أنفسهم منه غضاضة.

ويمكن كذلك الاستناد إلى فكرة الموجات العربية القديمة التي أنشأت الأقوام السامية بالنسبة للسريان والآشوريين والكلدان، بأن ينشر بينهم أنهم عناصر عربية قديمة بالمعنى الواسع لهذه النسبة.

أما التعريب بالنسبة لغير المسلمين بوجه عام فإنه يقف عند حدود اللغة ولا يتجاوزها إلى المفاهيم والمشاعر كما هي حال المسلمين من غير العرب.

وللتعريب طرق أخرى غير التعليم والتثقيف، كالقضاء على التكتل والتجمع في مناطق معينة، وتوزيع السكان غير العرب وذلك بطرق حكيمة جداً، والقضاء بوجه عام على جميع العوامل التي تغذي التكتلات والعصبيات القومية الخاصة.

٣ ـ صهر الطوائف الإسلامية جميعاً في بوتقة الإسلام العام، دون أن يكون في ذلك تَغلُّبُ طائفةٍ على أخرى، أي دون أن يصطبغ بصبغة (التسنين) بالنسبة إلى الطوائف الأخرى، بل نقل الجميع إلى الإسلام

الذي جاء به الرسولُ الكريم صلى الله عليه وسلم بريئاً من العصبيات؛ ومن أجل هذا الهدف يُعرض الإسلامُ عرضاً يسمو عن هذه العصبيات، وتوضح مبادئه العامة ومفاهيمه واتجاهاته وحضارته، وذلك عن طريق التعليم في المدارس، والتوجيه والإرشاد في المساجد والنوادي، وعن طريق نشر الكتب والمنشورات الأدبية والتاريخية والدينية.

ويجب أن يرسم لذلك خطة تفصيلية بالنسبة إلى كل فرقة من فرق المسلمين توضع على أساس معرفة مذهبها واعتقادها ووضعها الخاص، كما أن من الضروري أن تكون هناك خطة توجيهية للجمهور السني حتى يكون توجيهه منسجماً مع توجيه الفرق الأخرى.

ويجب في رأيي أن يبدأ العمل بسرعة في محيط العلويين لوجود الاستعدادات والإمكانيات، ولأنهم أكبر أقلية مذهبية في سورية، ولأن العمل والتطور جارٍ بطبيعته ولكن من غير نظام ولا دعم من قبل السلطات المسؤولة.

٤ ـ إيجاد صعيد مشترك بين الإسلام والمسيحية

يتكون من الأسس الاعتقادية والمبادىء الروحية والخلقية المشتركة بين الدينين، وتوسيع هذا الصعيد المشترك إلى أقصى حد ممكن، واستغلال ما يمكن استغلاله من الوقائع التاريخية المؤيدة لهذا الاتجاه، وإسدال الستار على الأمور الأخرى المختلف عليها، وعدم إثارة العصبيات والخلافيات بين الأديان، بل يترك لكل دين مسائله الخاصة به.

ويمكن أن يتخذ من القاعدة العربية مرتكزاً لهذه المبادىء الروحية والخلقية، إذ ينبه إلى أن من خصائص الأمة العربية السمو إلى مستوى الحياة الخلقية والروحية، وحسن فهم مبادئها وتطبيقها، وأن الشرق العربي كان دوماً مصدر الموجات الروحية في العالم في مقابل المادية المسيطرة في أوروبا والغرب قديماً وحديثاً، سواء أخذت شكل الحضارة الرأسمالية أو الحضارة الشيوعية.

وفكرة أخرى يجب نشرها ولا سيما في الأوساط المسيحية لكونها حقيقة تاريخية من جهة، ولما لها من ثمرات طيبة في تكوين الجيل الجديد وفي عملية الصهر

العام، وهي أن الإسلام كتاريخ وحضارة ومبادىء إنسانية هو تراث قومي بالنسبة إلى العرب على اختلاف أديانهم.

ويجب أن يلاحظ أن من الضروري أن لا يقتصر نشر هذه الأفكار على أوساط الخاصة والمثقفين، بل يجب أن يعم الجمهور ويَشيعَ في الأوساط العامة، حتى تحدث الطمأنينة والثقة والمحبة المتبادلة بين جمهور المسلمين والمسيحيين.

٥ ـ الوقوف دون انتشار النزعات والتيارات الشعوبية، وهي تشمل كل مذهب اجتماعي أو سياسي يفصل سورية عن البلاد العربية، أو يربط العرب بمذهب عقائدي شامل لا يرتكز على العروبة ولا على الإسلام، أو تربطهم بمركز نفوذ أو توجيه خارجي، وسد الطريق على هذه التيارات والوقوف دون استغلالها للعصبيات الخاصة والأوضاع المنحرفة الموروثة والنفسيات الناقمة والمستشعرة بالنقص، وأبرز هذه الشعوبيات حالياً هي: القومية السورية التي بدت مقاتلها وظهرت جرائمها

وانكشفت خيانتها.

وأما الشيوعية فتكون مكافحتها بطرق سلمية حكيمة بعيدة عن العناوين البارزة والدعاية المعلنة وذلك:

أ ـ بالدعاية المعاكسة الإيجابية للفكرة العربية من الوجهة السياسية، ولرسالة الإسلام ومبادئه، ولفكرة الدين والمثل الروحية بوجه عام.

ب ـ بالدعوة للنظم الاشتراكية المستقاة من تاريخ العرب ومبادىء الإسلام، والمرتكزة على أسس خلقية وروحية، والسعي لتطبيقها بقدر الإمكان.

جـ ـ بالحيلولة دون الدعاية الشيوعية، المباشرة منها وغير المباشرة، بالطرق الإدارية والأساليب العملية، ولا سيما غير المباشرة.

د ـ بإبعاد العناصر الشيوعية عن مراكز التأثير والنفوذ والاستعلامات والمواصلات.

٦ ـ التقريب بين التيارين العربي والإسلامي، وإقامة الانسجام بينهما بحيث لا يُضْعِفُ أحدهما الآخر

ولا يعاكسه أو يناقضه هو عامل أساسي وشرط ضروري للنجاح في الحلول والتدابير السابقة، وهو الطريق الصحيح السليم لصهر التكتلات الخاصة القومية والطائفية، وللوقوف دون التأثيرات الأجنبية والتيارات الشعوبية والشاذة المنحرفة؛ ويكون هذا التقريب والتنسيق باتباع الملاحظات والخطط التالية:

(أ) ـ بالنسبة إلى التيار الإسلامي:

١ ) عرض الإسلام في جميع المواطن بعقلية واعية مُتَّسعة مرنة دون الخروج عن روحه الأصلية واتجاهاته وحدوده الصحيحة، وإبعاد العقلية الجامدة المتزمتة والمتصفة بالعصبية الطائفية أو المذهبية، سواء بالنسبة إلى الأديان الأخرى أو الطوائف.

٢ ) إبراز ما في الإسلام من اتجاهات مُلبيَّة لحاجات المجتمع ونزعات التطور الحديث المقبول، كالعدالة الاجتماعية أو الاشتراكية، والتحرر من الاستعمار، والجهاد والنضال في سبيل الدفاع عن الأمة والبلاد، ومكافحة الاستعمار، وكالتسامح، والمساواة،

والإنسانية، والمثالية الخلقية، والنزعة الروحية التي يشترك فيها مع الأديان الأخرى.

٣ ـ اتخاذ الأرض العربية قاعدة أساسية ونقطة انطلاق للدعوة التحررية الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام، واعتبار تحريرها من الاستعمار شرطاً أساسياً لتحرير الإسلام وانطلاق موجته الإنسانية، وبالتالي واجباً مفروضاً على المسلمين جميعاً فضلاً عن العرب أنفسهم، واعتبار الأمة العربية المادة البشرية الأساسية لحمل عبء القيادة الفكرية والسياسية للعالم الإسلامي وشعوبه، ومكافحة الاتجاه الخاطىء الذي يَحطُّ من شأنِ العرب ويطعن في تاريخهم وينظر إلى مثالبهم بحجة الإعلاء من شأن الإسلام أو الدفاع عنه، مخالفاً بذلك حقائق التاريخ ونصوص الإسلام، كما يجب تصحيح الانحراف البادي في بعض الاتجاهات الإسلامية التي تَنفرُ من الوصفِ بالعربية ومن تخصيص العرب بالذكر، والمتولّد من رَدِّ فعل خاطىء لبعض الاتجاهات والمفاهيم القومية المنحرفة الخاطئة. إن هذه الظاهرة الشاذة التي تنتقص من العرب أو تنفر من الاعتماد عليهم أو من

تخصيصهم تنطوي على جهلٍ بمكانة العرب في تاريخ الدعوة الإسلامية واختيارهم دون غيرهم لحمل رسالته، وكونهم قديماً وحديثاً مادته الأساسية، وكون أرضهم قاعدته الثابتة ومُستقرّه الدائم، وتدل هذه النزعة على نقصانٍ في الوعي الصحيح أو فقدان له، وتسبب نفوراً من الإسلام نفسه ودعاية سيئة.

٤ ) اتخاذ بعض الصيغ والتعابير المقبولة والمسلّمة في الأوساط القومية، والتي تتضمن مفاهيم لا تخالف أسس الإسلام وجوهره، سبيلاً لبعث الإسلام ونشر مبادئه ومفاهيمه، وجسراً للانتقال من نظام من التفكير ومن قيم فكرية إلى نظام الفكر الإسلامي والقيم الإسلامية، بطريقة بريئة من الإثارة ومن سوء التفاهم الناشيء عن اختلاف المقاييس والتعابير الفكرية، وذلك كاستعمال تعبير (المبادىء الإنسانية) و (القيم الروحية) و (الرسالة الإنسانية) وكإحياء (تراثنا القومي في التشريع) بمعنى إحياء الفقه الإسلامي؛ وتختلف هذه التعابير باختلاف المواقف والبينات:

(ب) بالنسبة للتيار القومي العربي:

١ ) عرض الفكرة العربية وتاريخ الأمة العربية وحضارتها عرضاً يتناسب مع اتصالها العميق برسالة الإسلام ومفاهيمه وحضارته، فضلاً عن عدم التعارض بينهما، والابتعاد عن المفاهيم القومية المحتذاة على القوميات الأخرى والمقتبسة من مفاهيمها وفلسفاتها، مما هو في الواقع تشويهٌ للقومية العربية نفسها ومسخٌ لحقيقتها وتاريخها واتجاهاتها العميقة الأصلية، وقتلٌ لإبداعها وإسفافٌ بها إلى مرتبة التقاليد، وذلك (كالمفهوم الذي يجعل من القومية مذهباً شاملاً للحياة وغاية في ذاتها تحل محل العقائد والأديان والمذاهب الاجتماعية الشاملة)، وكالمفهوم القائم على العصبية الخاصة والقومية المغلقة، مما يُخالفُ الاتجاه الإنساني ويعاكس تطورَ البشرية ويثير الشعوب الأخرى، ولا سيما التي تربطنا بها روابط تاريخية وثقافية وعقائدية.

٢ ) إبراز ما في الأمة العربية وتاريخها من خصائص واتجاهات روحية وخلقية وإنسانية، وما تجلّى

من ذلك في حضارتها وتراثها، واعتبار الأهداف الإنسانية والمثل العليا والقيم الروحية التي جاء بها الإسلام غاية لتطورها واتجاهاً لحركتها وتراثاً جوهرياً لها وللإنسانية، يشتركُ في الحرصِ عليه جميعُ أبنائها على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم، وبذلك يتكون للأمة العربية مفهوم خاص تتميز به رسالتها وحضارتها عن جميع الحضارات والفلسفات القومية الأخرى التي هي فلسفات استعمارية أو مادية، ويكون هذا المفهوم إنسانياً قابلاً للتعميم، ونقطة اتصال واشتراك بينها وبين الشعوب التي دانت بالإسلام وانطبعت بطابعه وقبلت ثقافته التي هي ثقافة عربية بالدرجة الأولى، ويُحِلُّ الأمة العربية في محل الصدارة والقيادة، ويُحمِّلُها مسؤوليةً عالمية ويجعل مساهمتها ودورها عالميَّ الأفق، وبهذا الاتجاه يقضى على التيارات الشعوبية التي تغزو أمتنا باسم العالمية والإنسانية، وعلى الاتجاهات المادية التي هي تقليد محض للغرب، وبالجملة على كثير من النزعات والمفاهيم التي تأخذ صيغة قومية وتكمن فيها في الوقت نفسه أنواع من الغزو الشعوبي الأجنبي

للتفكير العربي الإسلامي، تنطوي على جهل وسطحية أو على قصد سيىء.

إن هذه الخطة التي تقرب بين التيارين العربي والإسلامي، وتقيم بينهما انسجاماً تضمن فوائد عظيمة تعطي ثمرات ومغانم كثيرة منها:

١ ) تكوين جدار داخلي متين ومناعة ضد كل تيار شعوبي أو أجنبي خارجي، وجمع الفئات المناضلة سواء منها الطبقات الشعبية التي تتأثر بالإسلام والعقيدة الدينية، أو الطبقات المثقفة التي يتأثر أكثرها بالفكرة القومية بالإضافة إلى العقيدة الدينية، وبذلك يتلاقى الشعب في أعماقه ولو اختلفت مظاهره الخارجية وظواهره السطحية.

٢ ) إقامة انسجام تام بين حركة الشعب ومشاعره وسياسة الحكومة، كما يحدث مثل هذا الانسجام بين حركات الشعب في جميع البلاد العربية ولا سيما الجزيرة العربية والمغرب، حيث لا يقبل المفهوم القومي التقليدي من جمهور الشعب.

٣ ) إقامة انسجام مماثل بين حركة الشعب العربي في جميع البلاد العربية والشعوب الإسلامية التي ترتبط بالبلاد العربية برباط الإسلام وتُقِرُّ لها بالفضل، وتصيبها خيبة أمل شديد من اتجاه العرب اتجاهاً أنانياً مغلقاً أو اتجاهاً قومياً على طريقة الغربيين وحسب مفاهيمهم.

٤ ) إزالة ما بين الحكام والشعب من حواجز ووسائط كالأحزاب والهيئات، إذ يصبح زمام المبادرة والتوجيه الكامل بيد الحكام الذين يتبنون هذه الفكرة العربية الإسلامية المتصلة بأعماق الشعب، والتي لم تستطع هيئة أو حزب الإحاطة بجميع أطرافها والوصول إلى منابعها وجذورها.

٥ ) البعد عن إثارة العصبيات القومية الأخرى في مَنْ تثيرهم المفاهيم القومية العنيفة المبنية على التمييز القومي والاستعلاء، مع أنهم اشتركوا مع العرب في تاريخ طويل ومبادىء أساسية وثقافة مشتركة ونضال مشترك، وعدد هذه الأقليات المسلمة غير العربية نصف مليون في سورية، وأكثر من مليون ونصف مثلاً في

العراق.

٦ ) إزالة ما بين الفرق الإسلامية من جفوة لأن هذا الاتجاه العربي الإسلامي لا يأخذ لوناً معيناً أو طائفة بل شكلاً عاماً مرناً.

٧ ) التقريب بين المسلمين والمسيحيين من أبناء سورية عن طريق التراث الروحي المشترك الذي يقف في وجه الاستعمار والحضارة المادية، والصبغة العربية التي أسبغت على التاريخ بل على مبادىء الإسلام نفسها التي اعتبرت تراثاً قومياً للعرب، وعلى أقل تقدير ما يثير العصبية بين الفريقين في هذه الخطة وهذا الاتجاه.

٨ ) مطابقة هذه الفكرة للحقيقة التاريخية ولاتجاه الأمة العربية الأصيل في تاريخها الطويل، ولإدارة جماهيرها الشعبية ولروابطها الماضية والحاضرة مع مئات الملايين من شعوب الأرض.

* * *

# فهرس الكتاب



من عصارة تجاربه الثرية ، وثقافته الواســــعة ، وخبراته المتنوعة ، وانطلاقا من حبه لموطنه ، وغيرته على أمته ، وتمنيه النجاة والسعادة لأبناء شعبه ، كتب المبارك دراسته هذه التي بين أيدينا أواخر الخمسينيات ، سابرا بها - وهو الشغف بعلم الاجتماع - تركيبة مجتمع بلده ، محللا فسيفسائيته الأخاذة ، وتشكيلته المعقدة . بمنهجية اهتمت برصد الحقائق وتسجيل الوقائع أولا ، وتحليلها - من ثم - دوافع وآثارا وتحسبات ، وتقديم اقتراحات التعامل الحكيم معها بعد ذلك ، آخذا بعين الاعتبار حساسيتها . وتناقضاتها . وخطورتها . هدفه استيعاب التناقضات وامتصاص النقم ، وتأليف القلوب وتوحيد الطاقات ، وديدنه احترام الخصوصيات والبحث عن نقاط الالتقاء ومساحات العمل المشترك ، واعيا بخلفيات الفئات التي رصدها على مدى التاريخ ، مدركا لنزعات بعضها . وشذوذ غيرها ، وانحراف المنحرف فيها ، وتشنج المتشنج من بينها ، ومن جماع ذلك كله انتهى الأستاذ المبارك إلى اعتماد القاعدة العربية - الإسلامية قاعدة جذرية لميادين الفكر مشتركة تشد الكل

أصل قاعدة . ومنطلقا